الحموي

دمشق في العصر الايوبي

956.9:H23id.A

الحموي – محمد ياسين

دمشق في العصر الايوبي

APR 20 9296

G71-0299

DATE DUE

JAFET LIB.
1 OCT 1963

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

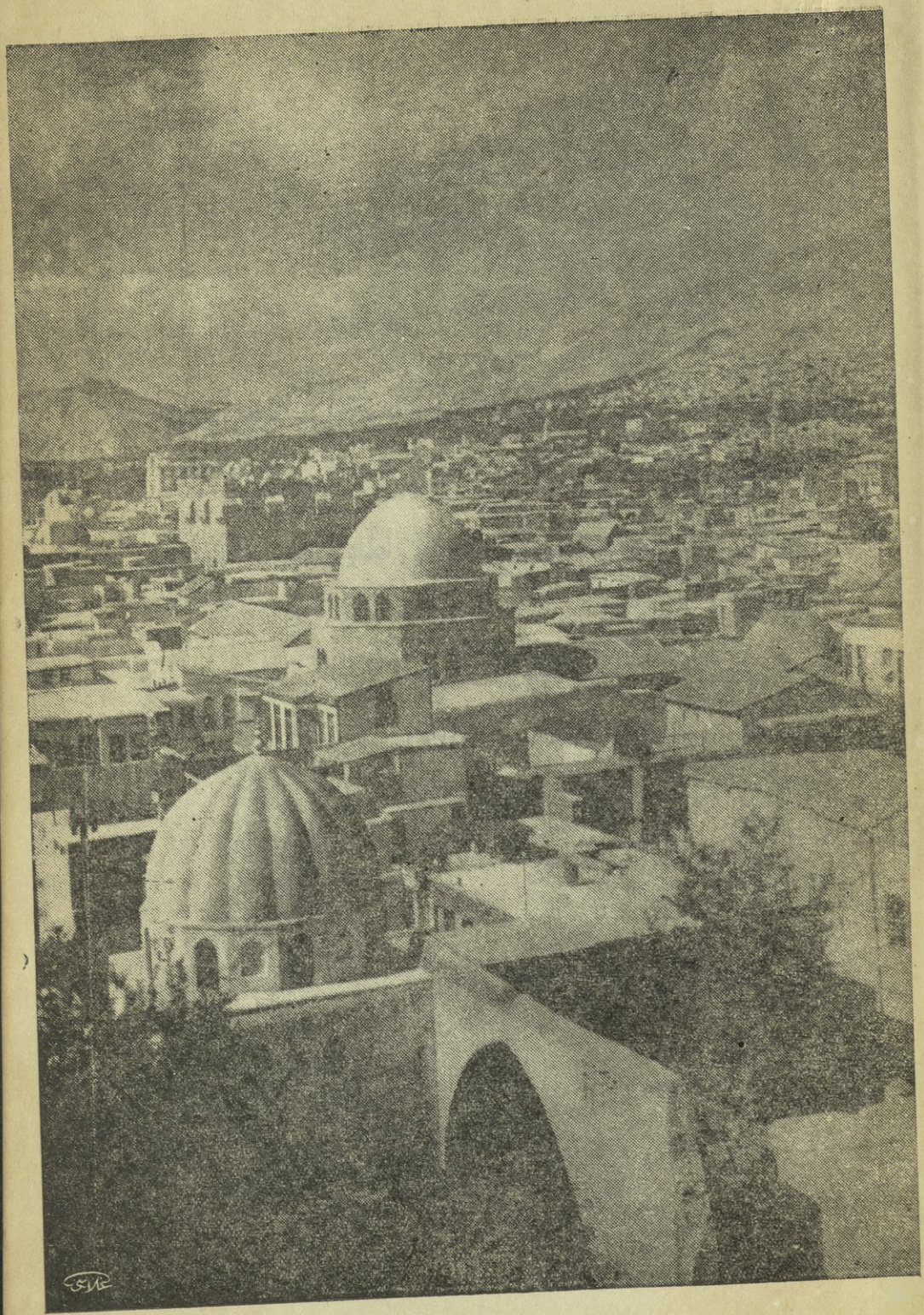

دمشق : قبة السلطان صلاح الدين الايوبى والقلعة وقاسيون

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٩٦هـ — ١٩٤٦م

ولقد وقفتُ على رُبوعِهم ... وطلولُها بيدِ البِلى نَهْبُ

فبكيتُ حتّى ضجّ من لَغَبٍ ... نِضْوي ونَجّ بعذْلِيَ الرَّكبُ

وتلفّتَتْ عيني فمُذْ خَفِيَتْ ... عنّي الطّلولُ تلفّتَ القلبُ

(الرضي)

المبحث التاريخي

تمهيد

في أواخر القرن الرابع للهجرة بلغ التنافس أشده بين حاضرتين عظيمتين من أشهر الحواضر الاسلامية : القاهرة في الغرب ، وخليفتها المعز لدين الله الفاطمي [1] ، وبغداد في الشرق وخليفتها المطيع لله العباسي [2] . وأخذت كل منهما تسابق الأخرى لبسط نفوذها على العالم الاسلامي ، وتفرض سلطانها عليه ؛ غير أن الغلبة والفوز كانا للقاهرة دار الخلافة الشيعية الفتية ، على بغداد دار الخلافة العباسية السنية المتداعية ، وانتقصت كثيراً من أملاكها ، حتى اتسعت أكناف مملكتها وامتدت من المحيط الأطلسي غرباً الى نهر الفرات شرقاً ، ودعي لخليفة مصر على منابر الحجاز والشام واليمن والموصل ، ومالطة ، وصقلّية . وكادت هذه الدولة تملك ملكاً عاماً وأن تدين الأمم لها [3] .

---

(١) هو المعز ابو تميم معد بن المنصور اسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدي عبيدالله المغربي الفاطمي ، وكان مولده ببلاد المغرب بمدينة افريقية سنة ٣٤١هـ وهو رابع خليفة من بني عبيدالله ببلاد المغرب ، واول خلفائهم في مصر توفي سنة ٣٦٥هـ وكانت مدة خلافته بمصر اربع سنين وشهراً ويومين .

(٢) هو ابو القاسم الفضل بن المقتدر بالله الثاني والعشرون من خلفاء بني العباس ازداد في ايامه امر الخلافة ادباراً حتى لم يبق لهم من الامر شيء قل ولا جل ، وفي ايامه وصل المعز العلوي الديار المصرية وملكها .

(٣) روى ابن اياس عن المسبحي قال : كان الخلفاء الفاطمية يحكمون من مصر الى الشام ، الى حلب ، الى الفرات ، الى مكة والمدينة الشريفة ، الى القدس والخليل وصارت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة ، وكانت الخلفاء العباسية يحكمون من الفرات الى بغداد واعمالها الى سائر بلاد المشرق .

وازدادت ثروتها ، وعم الرخاء في أرجائها ، واستبحر عمرانها ، وتفنن خلفاؤها في بناء القصور ، وتأنقوا في زخرفتها تأنقاً دل على مبلغ حضارتهم ورقيهم ؛ ولقد روى لنا المقريزي في خططه أن الآمر بأحكام الله الفاطمي (١) بنى بالقرب من الفسطاط في موضع بركة الحبش منظرة من خشب مدهون ، وأمر أن يصوَّر له فيها شعراؤه ، ثم طلب من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح كتبت في جوار صورته ، وجُعل الى جانب كل صورة رفّ لطيف مذهب ، فلما دخل الأمراء ، وقرأ الاشعار طلب أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر فيأخذ صرته ، ففعلوا ذلك .

وعلى الجملة فقد نجح الفاطميون بتأسيس امبراطورية شاسعة ، وحضارة باهرة ، اشتهرت بنظمها الادارية المحكمة ، وفنونها ، وجيوشها ، وأساطيلها وإقامة العدل في محاكمها ، وتسامحها الديني ، إلى جانب ما عرفت به من تشجيع العلم والثقافة .

وكانت دمشق جزءً من هذه الأمبرطورية بسط الفاطميون عليها سيادتهم سنة ٣٦٣ هـ (٢) ؛ وأرسلوا إليها ولاتهم وعمالهم ، ولكن ما استطاع

---

(١) هو ابن المستعلي بالله ، احمد ، السابع من خلفاء الدولة الفاطمية ، بويع بالخلافة سنة ٤٩٥ هـ وتوفي سنة ٥٢٤ هـ .

(٢) في خلافة الطائع العباسي ، استفحل امر القرامطة واستولوا على بلاد الشام واغاروا على مصر وفيها المعز الفاطمي ، فسير اليهم جيشاً ردهم عن مصر الى دمشق وحاصروا فيها ، فتعقبهم بعشرة آلاف فارس الى ابواب دمشق ، وبعد حصار شديد فتحت الابواب للجيش الفاطمي فاحتلها وذلك في سنة ٣٦٣ هـ .

هؤلاء الولاة أن ينشروا الطمأنينة والأمن فيها ، ولا هدأت الفتن بين الدمشقيين وجنود الدولة ، وكانت الأخبار تنتهي الى المعز لدين الله بما يجري على أهل دمشق من الحروب ، واحراق المنازل ، والنهب والسلب ، وإخافة المسالك ، وقطع الطرقات على يد عساكره المغاربة .

حدّثنا ابن القلانسي في تاريخه قال: في سنة ٣٧١هـ أحرقت جبهة الشاغور وباب شرقي ، وعدة مساجد ، وعمها الخراب بعد ما كانت عليه من حسن العمارة ، وفي سنة ٣٧٨هـ عم الناس البلاء في جميع الأحوال وصارت أفعالهم وسيرتهم إباحة الأموال ، والأنفس ،وسوء الأعمال .

هذا الاضطراب في الأمن والادارة حمل الدمشقيين على أن يحيوا حياة خاصة. فقد انقسمت المدينة الى أحياء مستقلة عن بعضها، كل حي أشبه بمدينة صغيرة تتألف من أزقة ضيقة ، ودخلات لا منافذ لها ؛ فيها مسجدها وسويقتها ، وحمامها ، ومياهها ؛ ولها باب يقفل في الليل ، يتناوب على حراسته أفراد من أبناء الحي نفسه ؛ أما الأماكن التي يشترك فيها سكان دمشق بجميعهم فهي: أولاً الجامع الأموي لاداء صلاة الجمع والعيدين، ثم فيه يستمعون الى ما يذاع عليهم من أنباء الجهات ومراسيم السلطان . ثانياً الأسواق وعرضها من متر الى ثلاثة أمتار، تمتد متوازية في قلب المدينة[1]، فيها حوانيت التجار والصناع ويختص كل منها في حرفة من الحرف، وتقع الخانات التجارية بينها، ولكل

(١) قال المقدسي (٣٧٥هـ) يصف دمشق : بنيانهم خشب وطين ... اكثر اسواقها مغطاة . ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن ... ومنازلها ضيقة. وازقتها غامة... تكون نحو نصف فرسخ في مثله .

سوق مدخلان يقفلان عند المساء، ولا تزال بقايا هذه الأسواق ماثلة الآن في سوق القطن، وسوق الخواصين المعروف اليوم بسوق الخياطين، ولكن مع قليل من التحسين والاتساع.

ولا تكاد تبلغ مساحة المدينة كلها أربعة كيلومترات يقسمها شارع يمتد من الباب الشرقي إلى الباب الغربي [١] وطوله ما يقرب من كيلومترين، والمسافة من الباب الشمالي الى الباب القبلي [٢] كانت أقصر منه قليلاً؛ ويقع الجامع الأموي في وسط المدينة، وحوله قصور الأمراء.

وهناك السور، ويحيط بالمدينة كإطار؛ يتولى حراسته الى جانب رجال الجيش في أيام الحروب والغزوات جماعة يسمونهم الأحداث والعيارين [٣] وهم فئة من الغوغاء أصحاب الشر.

. . .

وظلت دمشق فاطمية علوية نحو قرن كامل، أخذ شأن الدولة في أواخره بالاضمحلال، واستأثر رجال مصر بالساطة دون خلفائها، وصاروا يلقبون بالملوك، واشتد التنافس بينهم على المناصب في الوقت الذي قويت فيه شوكة السلاجقة [٤] في آسيا، واستولوا على ايران، والبلاد المتاخمة له، ودخلوا بغداد

---

(١) اي باب الجابية اليوم.

(٢) الباب الشمالي هو باب الفراديس اي باب العمارة اليوم. والباب القبلي هو باب الشاغور.

(٣) العيار الذي يتردد بلا عمل ... وقال ابن الانباري: العيار من الرجال الذي يخلي نفسه وهواها لا يروعها ولا يزجرها (محيط المحيط).

(٤) السلاجقة اخلاط من الترك يتجولون بين نهر الفولغا وبلاد تركستان. وكان من مقدميهم رجل يقال له دقاق فولد له سلجوق فنجب ودخل في دين الاسلام واقام بنواحي

وناصروا خلفاءها العباسيين وأعادوا رونق الخلافة فيها ، وتوغل ملكهم ألب أرسلان في فتح البلاد الشامية ، وقطع خطبة المستنصر الفاطمي[١] العلوي ، وخطب للقائم العباسي[٢] ،وأخذ ظل الدولة الفاطمية يتقلص.

وفي سنة ٤٦٨ سار الامير أتسز التركي أحد أمراء السلاجقة الى دمشق وفتحها وأنزل جنوده دور الدمشقيين ، إذ لم يكن قائم من بناء القلعة القديمة إلا حجارتها وأنقاضها، فبناها واستعان على ذلك بقسم من الاسس القديمة، واعتنى بها اعتناءً دقيقاً ؛ وخطب للمقتدي العباسي[٣] وانقطعت دعوة

بخارى وصار يغزو الترك ، وانجب اولاداً واحفاداً — كانت الحرب بينهم وبين الدولة السامانية سجالا وذلك سنة ٤٢٥هـ — وكان منهم طغرلبك وكانت صلته مع القائم بامر الله العباسي حسنة . ثم سار الى نصيبين ، وديار بكر ، واستولى على الموصل ومات بالري سنة ٤٥٥هـ . وخلفه ابن اخيه الب ارسلان وسار الى حلب ، واقر صاحبها محمود بن نصر ابن صالح بن مرداس عليها . ولقي ملك الروم وهزمه ، وبعث جيوشه فاخذت القدس ، والرملة من خلفاء مصر الفاطميين . وحصرت دمشق ، ومات الب ارسلان بعدما رجع من حلب الى ما وراء النهر سنة ٤٦٥ هـ.وكان يخطب له من اقصى بلاد الترك الى بلاد اليمن. وفي ايامه ملك دمشق اتسز . ثم اخذها منه تتش بن الب ارسلان فاستمرت بايدي الترك ، وبعث ملك شاه ايضاً آقسنقر فملك الموصل ، وآقسنقر هذا هو والد عماد الدين زنكي (السلوك للمقريزي)

(١) هو معد بن الظاهر لدين الله علي بن منصور الحاكم بامر الله،وهو الخامس من بني عبيدالله الفاطمي ، ولد في القاهرة سنة ٤١٨ هـ . قال ابن اياس : وهو الذي خطب له البساسيري على منابر بغداد مع وجود خلفاء بني العباس ...

(٢) هو الخامس والعشرون من خلفاء بني العباس توفي سنة ٤٦٧ هـ وخلافته اربع واربعون سنة وتسعة اشهر .

(٣) هو ابو القاسم عدة الدين عبدالله بن الامير ذخيرة الدين محمد بن الخليفة القائم بامر الله بن القادر العباسي ، وامه ارمنية تسمى ارجوان ، وتدعى قرة العين. تولى الخلافة وعمره عشرون سنة . بويع سنة ٤٦٧هـ وتوفي سنة ٤٨٩هـ .

الفاطميين من أكثر مدن الشام ، ولم يخطب بعدها في دمشق للعلويين ؛ وصار السلاجقة يحكمون دمشق إما مباشرة أو بواسطة أتابكهم [١]

وممن حكم من السلاجقة : شمس الملوك ابو نصر دقاق بن تتش بن ألب ارسلان ، وتوفي سنة ٤٩٧ هـ ودفن في مسجد بحكر الفهادين [٢] بظاهر دمشق على نهر بردى وتسمى قبته بقبة الطواويس [٣]

وممن حكم من أتابكهم في حلب نور الدين محمود بن زنكي ، وفي دمشق مجير الدين طغتكين أتابك الملك دقاق ؛ وفي أيامه اي سنة ٥٤٣ هـ جاء الى دمشق خمسون ألفاً من الالمان الصليبيين ، ونزلوا بناحية المزة لقربهم من الماء ، ثم زحفوا الى البلد بخيلهم ورجلهم ، ووقف المسلمون بازائهم ونشبت الحرب بين الفريقين ، واستظهروا على المسلمين لكثرة عددهم ، وانتشروا في مرج الزنبقة [٤] ، وكان ممن تلقاهم في النيرب الشيخ عبدالرحمن الحلحول وآل على نفسه ألا يرجع أو يستشهد فكان له ما أراد ، وسقط شهيداً بطعنة صليبية ، ثم

---

(١) جاء في الصفحة ١٤٦ من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : ان لفظ اتابك يتألف من لفظين تركيين ، وهما اطا بمعنى اب ، وبك بمعنى امير . واصله ان السلاطين السلاجقة منذ ايام ملك ابن الب ارسلان (٤٦٥—٤٨٥هـ) كانوا يطلقون لفظ اطابك على كبير امرائهم . يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان او امير قاصر صغير ، وكثيراً ماتزوج الاطابك من ام الموصى به ، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه ابويه ، ثم اطلق هذا اللقب في ايام المماليك بمصر على مقدم العساكر والقائد العام على اعتبار انه ابو العساكر والامراء جميعاً وكان يسمى اتابك العساكر .

(٢) محلة البحصة البرانية اليوم .

(٣) المعروفة بجامع الطاووسية اليوم .

(٤) اي المرج الاخضر الآن الواقع غربي دمشق .

حمل ودفن في بستان الشعباني حيث يرقد الآن وقبره معروف ، وكان مقامه في حياته في ذلك المكان ؛ وأيقن أهل دمشق أن الفرنج سيملكون البلد لو لا أن حصل بينهم انقسام ، وجاء مدد إلى الدمشقيين فخاف الفرنج ورحلوا عن البلد ، وكانت هذه خاتمة الحرب الصليبية الثانية . ومما يجدر ذكره هنا أن المسيحيين العرب وقفوا إلى جانب المسلمين في حروبهم مع الصليبيين .

واستخلص الأتابك نور الدين محمود بن زنكي دمشق من مجير الدين سنة ٥٤٩ هـ فضبط أمورها وحصن سورها وبنى بها المدارس ، والمساجد ، وأصلح طرقها ، وأسواقها ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ ، وسوق الغنم ، والكيالة وغيرها ، وعاقب على شرب الخمر ، وكان في الحرب ثابت القدم يتقدم أصحابه ويتعرض للشهادة ، ويسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير ، وكانت الحرب الصليبية في أيامه قد احتدمت فوقف منها في مصر والشام موفقاً خلد اسمه إلى الأبد ، وتوفي بعلة الخوانيق بدمشق سنة ٥٦٩ هـ ولذلك دعي بالشهيد .

في سنة ٥٦٤ هـ أغار الإفرنج على مصر، فأرسل الخليفة العاضد[١] إلى نور الدين محمود بن زنكي في دمشق يستنجده، فأنفذ أتابكه أسد الدين شيركوه[٢] ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، فطرد الإفرنج عن أرض مصر، وقتل (شاور) وزير الخليفة العاضد لتآمره وسوء تدبيره، فاطمأنت البلاد، فأخذ الناس في اصلاح ما شعثه الصليبيون وأفسدوه، وتقاطروا إلى خدمة أسد الدين شيركوه والتقرب إليه، وقلده العاضد منصب الوزارة، ثم ما لبث أن توفي سنة ٥٦٤ هـ وتولى مكانه ابن أخيه صلاح الدين ولقبه العاضد بالملك الناصر[٣].

---

(١) هو الحادي عشر من خلفاء بني عبيد الله الفاطميين. توفي سنة ٥٦٧هـ وبه انقطعت دولة بني عبيد الله عن الخلافة في مصر بعد أن حكموها ٢٦٨ سنة.

(٢) كان شيركوه هذا (ومعناه أسد الغابة) وأخوه نجم الدين بن شادي من بلد دوين احدى بلاد آذربيجان، وأصلهما من الاكراد، اتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكي وخدمه في أيام أبيه فلما ملك حلب بعد أبيه كان لنجم الدين أيوب عمل كبير في أخذه دمشق فزادت مكانتهما عنده فلم ير أحداً يليق به أن يسير الى مصر سوى شيركوه. (السلوك لمعرفة دول الملوك)

(٣) قال ابن خلدون: (اختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالالقاب بعد أن تسموا جميعاً باسم السلطان. فاما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل: شرف الدولة، وعضد الدولة، ونظام الملك وأمثال هذه ونزعوا حين قوى استبدادهم على الملك، وعلا كعبهم في الدولة والسلطان، وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة.

كان صلاح الدين تصبو نفسه إلى الامرة والسلطان ، وأراد مصر لنفسه دون سيده نور الدين ، فأتى بأهله إلى مصر ، وأقطعهم الاقطاعات السنية وأزال أيدي أصحاب العاضد وتفرد بالحكم ؛ ثم مات العاضد واستقلَّ هو بملك مصر وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة بلا منازع ، وقبض على خزائن الفاطميين وكنوزهم وأموالهم ، وكان ذلك كله في أيام الخليفة المستضيء من بني العباس في بغداد ؛ فبايعه صلاح الدين بالخلافة وخطب باسمه على منابر القاهرة ، وارسل اليه الخليفة العباسي تقليد السلطنة بالتفويض والتحكيم من أطراف المغرب إلى مصر والشام واليمن . وهكذا عادت السلطة الزمنية في مصر لخلفاء بغداد مرة ثانية ، فكان هذا الحادث السياسي ذا خطورة عظيمة في تاريخ العرب في العصور

الى انتحال الالقاب الخاصة بالملك مثل : الناصر والمنصور زيادة على القاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما اضافوها الى الدين فقط فيقولون : صلاح الدين ، اسد الدين ، نور الدين ...)

ولم تقتصر هذه الالقاب على رجال الدولة وارباب السلطان ، وانما تعدته الى محتشمي البلدة واعيانها فتسمى كل واحد منهم باسم اضافه الى الدين يشعر بالحرمة وعلو المكانة ، وقد اشار الى هذا الرحالة ابن جبير عندما قدم دمشق سنة ٥٨٠هـ قال : ... ولكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة واعيانهم ، ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين ، فتسمع ماشئت من صدر الدين او شمسه ، او بدره ، او نجمه ، او زينه ، او بهائه ، او جماله ، او مجده ، او فخره او شرفه ، او معينه ، او مجيبه ، او زكيه ، او نجيبه الى مالا غاية له من هذه الالفاظ الموضوعة وتتبعها ولاسيما بالفقهاء بما شئت ايضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة ، وحجة الاسلام ، وفخر الشريعة ، وشرف الملة ، ومفتي الفريقين الى مالا نهاية له من هذه الالفاظ المحالية ، فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحباً اذياله من الكبر ثانياً عطفه وقذاله ...

الوسطى ، فقد أنقذهم من فوضى التجزئة والانقسام التي دامت قرنين ونصف ، ووحد بين الاقطار الاسلامية العربية .

وكان نور الدين محمود زنكي توفي بدمشق ودفن في مدرسته بسوق الخواصين ، وعلم صلاح الدين أن الملك الصالح بن نور الدين صغير لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك ، ورأى أن الاحوال قد اختلت في الشام فتجهز بجيش كثيف سنة ٥٧٠ هـ واستخلف على مصر أخاه الملك العادل وسار هو إلى دمشق فملكها من غير مدافع ، وانفق في الناس مالاً جزيلاً ، وأمر فنودي باطابة النفوس ، وإزالة المكوس ، وابطال ما حدث بعد نور الدين وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع ، فأنزل فيها أخاه ظهير الاسلام طغتكين بن ايوب ، ورحل هو الى حلب فافتتحها بعد قتال شديد ، وأخذت البلاد الشامية تدخل في طاعته الواحدة تلو الاخرى ، حتى استتب له الامر فيها كلها ، وانشأ دولة على انقاض الدولة الفاطمية ، واتسعت مملكته ، فولى أولاده وإخوته وأقاربه الامارات و الولايات في مصر والشام ، وكردستان واليمن وخراسان ؛ وشغل حياته بالغارات على بلاد الفرنج وثغورهم في الشام وهو يسير من ظفر الى ظفر وتهاني الشعراء تأتيه عقب كل وقعة وظفر ، مما أهاب بالافرنج الى أن يستعدوا في أوروبا الى حملة صليبية رائعة ، وكان السلطان يتردد في اوقات السلم بين مصر والشام الى أن وافاه أجله بدمشق [سنة ٥٨٩ هـ] التي أحبها وأحبته ، فدفن في قلعتها ، ثم نقل رفاته الى تربته عند

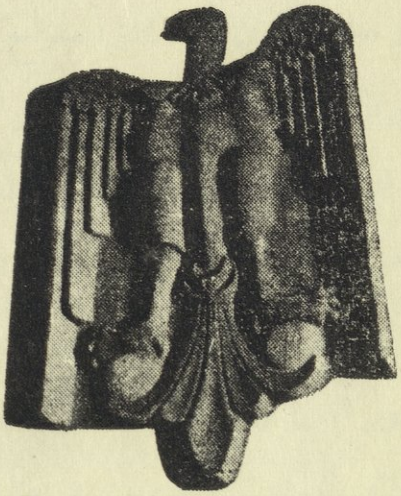

كتاب دمشق في العصر الايوبي

١ — كان هذا الرنك شعار صلاح الدين ، وهو نسر منفرد الجناحين يوضع على القلاع والحصون والقصور

٢ — وكانت رايات الايوبيين من حرير اصفر مطرزة بالذهب عليها القاب السلطان واسمه تسمى (العصابة) وراية عظيمة في رأسها خصلة شعر تسمى (الجاليش)

باب الكلاسة شمالي الجامع الأموي.

حصل بين ولدي صلاح الدين[١]، العزيز في مصر، والأفضل في دمشق اختلاف على السلطان، واستعد كل منهما للآخر، وحاصر العزيز دمشق، واشتد الحصار، وقطعت الأنهار ونهب الثمار والوقت زمن المشمش، وتوسط عمهما العادل بينهما بالصلح، وكان الرسول الأمير فخر الدين جهاركس[٢]، وتم الصلح بين الأخوين في مؤتمر نهر الأعوج بالقرب من قرية داريا.

كان العادل يود أن يكون خلفاً لأخيه صلاح الدين حسماً لكل ما سيقع، غير أنه ترك الأمر إكراما لأخيه ورعاية لحقه، فلما كان من الاختلاف ما كان خاف أن يخرج الملك عن يده ويد اولاد اخيه، فساس الأمر الى آخره، ولما رأى الحال لا تصلح الا بقيامه فيه ونهوضه بأعبائه تسلم زمام الملك مدة ثلاث وعشرين سنة، حارب فيها الافرنج في عدة وقائع حتى اوقفهم عند حدودهم، وكان حميد السيرة حسن السياسة صاحب معرفة بدقائق الأمور، هادنته الفرنج لقوة حزمه وشدة تيقظه، وغزارة عقله.

رزق في أولاده سعادة قلما يتفق مثلها لملك، فبلغوا تسعة عشر ذكراً سوى البنات، ورأى فيهم ما يحب من اتساع الممالك وكثرة الظفر بالاعداء، بحيث لم يسمع عن ملك أنه رأى في أولاده ما رآه

---

(١) خلف السلطان صلاح الدين سبعة عشر ولداً أكبرهم الملك الافضل، ثم الملك العزيز...

(٢) جهاركس: معناه اربعة أنفس. واليه تنسب قباب شركس في حي الشركسية بسفح قاسيون حيث قبره الآن.

العادل ، فانه اجتمع في كل منهم من النجابة والنبل والكفاية والمعرفة ، والفضيلة ، وعلو الهمة لا مزيد عليه ، ودانت لهم العباد ، وملكوا خيار البلاد ، وكان كثيراً ما يتردد في ممالك أولاده يصيف بدمشق ، ويشتي في مصر ، حتى وافاه أجله بقرية عالقين من اعمال حوران سنة ٦١٥ هـ فحمله ابنه المعظم ودفنه في قلعة دمشق ، ثم نقل رفاته الى المدرسة العادلية .

قام أولاده من بعده بالملك أحسن قيام ، فقد كانت لهم معارك مشهورة مع الفرنج كما كان لأبيهم من قبلهم ، واعظمها وقعة دمياط سنة ٦١٨ هـ وكادت مصر مع الشام يستأصل شافة أهلها الفرنج ، حتى منَّ الله على الأيوبيين بالنصر بعدما ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . وقدمت على الملك الكامل وأخيه المعظم تهاني الشعراء بهذا الفتح العظيم ، فكان أولهم ارسالاً شاعر دمشق شرف الدين بن عُنين[1] .

---

(١) في سنة ٦١٨ هـ نزل في ثغر دمياط مئتا مركب من الفرنج واستولوا على المدينة فاضطربت احوال الديار المصرية ، وعليها الملك الكامل بن العادل فجهز جيشاً من عشرين الف مقاتل وحصر دمياط ، وقد اسرف الفرنج في القتل ، والنهب ، والاسر ، وطال الحصار فأنشأ الملك الكامل هناك قرية وسماها المنصورة ، وبنى فيها الاسواق ، والفنادق ، والحمامات ، واستنجد بالملوك الايوبية ، فحضر اخواه الملك المعظم صاحب دمشق ، والملك الاشرف صاحب حلب وماردين . وكانت وقعة هائلة انتصر بها المسلمون على الفرنج واخرجوهم من الديار المصرية فقال ابن عنين قصيدة منها :

ومستخبر عني وما من جهالة ... كشفت الغطا عنه فزال ارتيابه
وذكرته ايام (دمياط) بيننا ... وبين العدى والموت يهوي عقابه
وجيش خلطناه رحاب صدوره ... بجيش من الاعداء غلب رقابه
وقد شرقت زرق الاسنة بالدما ... وانكر حد المشرفي قرابه
تركناهم في البر والبحر لحمة ... تقاسمهم حيتانه وذئابه

وكانت خلفاء بغداد ترسل إليهم التشاريف والخلع [١] على اعمالهم المجيدة في الدفاع عن الاسلام والمسلمين ، غير أن الاختلاف مالبث أن وقع بين آل العادل على الإمرة والملك من جهة وبين أحفاد الملك الناصر صلاح الدين من جهة أخرى وكان أهل دمشق فى هذه الحال يلاقون بلاءً عظيماً وشدة وضنكاً بسبب الحصار والحرائق التي تنشب في أحيائها كالعقيبة ، والشاغور ، وقصر حجاج ، وباب الجابية ، وباب الصغير ، وحكر السماق ، وباب الفرج ، وخارج باب النصر ، وفي مساجدها وخاناتها ، ومدارسها ، الى أن كانت سنة ٦٤٧ هـ وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ملك مصر والشام ، وكان قد جمع لديه كثيراً من المماليك الأتراك ، فاتفقت زوجته شجرة الدر (وهي أمته) مع أحد مماليكه ركن الدين بيبرس على النهوض بالأمر بعد قتل ابنه توران شاه [٢]

إلا أن آل أيوب بالشام نازعوهما الملك وحصلت بين العساكر الشامية والعساكر المصرية حروب كثيرة ظهر في أثنائها هولاكو على أبواب بغداد ، واستولى عليها وأوقع بخليفتها المستعصم بالله ، ثم اتجه نحو البلاد الشامية ، ونزل

---

(١) تتألف الخلعة من : جبة اطلس اسود بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز مذهب ، وطوق ذهب مجوهر يطوق به ، وسيف قرابه ملبس ذهباً يقلد به وحصان اشهب بركاب ذهب . وينشر على رأسه علم اسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة (ابن الوردي سنة ٦٠٤) .

(٢) قال استاذنا العلامة محمد بك كرد علي في خططه : قل الرجال الذين يصلحون للملك من آل ايوب وضعفت عصبيتهم وانصارهم من اكراد وغيرهم وكان انقراضهم بيد المماليك الذين غذوا بنعمتهم فلم يعرفوا لهم بيض اياديهم . وبيد السفاك هولاكو وجماعة من التتار .

نائبه (كتبغا) على دمشق فتلقاه كبراء المدينة بمفاتيحها!!

قال ابن الجوزي. (كثرت الأراجيف بدمشق بسبب التتار فهرب كثير من الدمشقيين وباعوا أصلهم، وخرجوا على وجوههم متفرقين في البراري، والجبال والحصون وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد، فمات كثير منهم ونهب آخرون.) أما التتار فتسلموا قلعة دمشق بالأمان ونهبوا مافيها وخربوا أسوارها وتوجهوا نحو مصر، فأجمع المماليك أمرهم وكسروهم عند عين جالوت في فلسطين، وتفرقوا في البلاد، وتعد هذه من الوقائع الحاسمة في تاريخ الشرق وذلك في أواخر القرن السابع للهجرة قال ابن أبي شامة: (ومن العجائب أن التتار كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك.)

ثم آل الملك في مصر والشام إلى الملك الظاهر بيبرس[1] فدفع عن البلاد عادية الصليبيين والتتار وأبلى بهم بلاء حسناً فأحبته البلاد ورغبت به العباد وظلت دمشق في حكم المماليك الأتراك ثم بعدهم المماليك الجراكسة الى سنة ٩٢٢ هـ فانتقلت الى بني عثمان.

---

(١) تركي الجنس اشتراه الملك الصالح نجم الدين ايوب وترقى في خدمته وخدمة ابنه الملك المعظم تورنشاه من بعده الي ان قتل. ثم لم يزل يترقى الى ان خرج مع الملك المظفر قطز الى قتال التتار. فلما قتل قطز اتفق الامراء على سلطنة الامير بيبرس سنة ٦٥٨هـ فهو الرابع من ملوك الترك واولادهم بالديار المصرية. ويعرف بالملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي النجمي. خلص كثيراً من البلاد الشامية من ايدي الصليبيين. وفتح كثيراً من بلاد المشرق. وضم اليه البلاد الشامية كلها. وانشأ كثيراً من العمائر البحرية. وابتنى المدارس والجوامع والقصور التي منها القصر الابلق في دمشق. والخانات في جميع البلاد. وعلى الجملة كان ملكا عظيما جليلا مهيباً كثير الغزوات. توفي في دمشق ودفن فيها سنة ٦٧٦هـ

قال بعض مؤرخي الاسلام : إن الأكراد أصلهم من العرب . وقدا تفقت عبارة بن حقول (٣٦٧) والمسعودي (٣٤٥) والمقريزي(٨٤٥) على أنهم ينسبون الى كرد بن مُرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر ابن هوازن ، وهم قبائل كثيرة منها : المروانية ، وتزعم انها من مروان بن الحكم بن أبي العاص ، ومنهم الهكاريه ، وتزعم انها من ولد عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب ، ولهذا كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام بن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أمية ، وادعى الخلافة؛ ولكن ابن شداد نقل عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك وقال : ليس لهذا أصل أصلاً . وقال ابن خلكان : والايوبيون الأكراد الراوادية من آذربيجان . وقال في مكان آخر من كتابه وفيات الأعيان نقلاً عن كتاب القصد والأمم في التعريف باصول أنساب العرب والعجم لابن عبد البر : أن الأكراد من نسل عمرو بن مُزَيْقيا ، وأنهم وقعوا إلى ارض العجم فتناسلوا بها وكثر ولدهم فسموا الكرد ، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو بعضد ما قال ابن عبد البر :

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

الثقافة

سواءً أكان الايوبيون أكراداً أم عرباً ، فقد نشؤوا نشأة اسلامية وتعرّبوا، فما عرفوا غير العربية لساناً ، ولا غير الاسلام ديناً ، عانوا ملابس العرب ، ومراكبهم فكانوا عرباً في الصنائع والصناع ؛ وشغفوا حباً باللغة العربية وآدابها ، وعلومها حتى نبغ منهم علماء وشعراء وأدباء ، وكان صلاح الدين نفسه يفهم الشعر ويهتزله ، عرض عليه العماد الاصبهاني مرة ابياتاً في وصف المشمس منها :

بدت بين أوراق الغصون كأنها كرات نضار في لجين مطرق

فقال السلطان : تشبيه الاوراق باللجين غير موافق ، فان الورق أخضر ، فغيرّ العماد الشطر الثاني من البيت وقال :

كرات نضار بالزمرد محدق .

وكانت مجالسه تغص بأهل العلم والادب ، والفضل ،يؤثر سماع الحديث بالاسانيد ويتحدث الى العلماء باصول الشريعة الغراء ، وكان لمداومة أحاديثه مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية ، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به .

وكان أخوه الملك العادل مائلاً الى العلم والعلماء، صنّف له فخر الدين الرازي كتاب تأسيس التقديس وسيّره إليه من بلاد خراسان . والملك

المؤيد صاحب اليمن من أهل العلم ، وقد اشتملت خزانته على مئة الف مجلد . والملك المعظم عيسى بن الملك العادل كان راغباً في العلم ، شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مئة دينار وخلعة ، وترجم له قوام الدين الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني كتاب الشاهنامة لأبي القاسم الفردوسي سنة ٦٢١ هـ في مدينة دمشق فأنعم عليه . وكان ابو الفداء صاحب حماة مؤرخاً شهيراً . وبهرام شاه صاحب بعلبك أديباً شاعراً له ديوان شعر . وكان اولاد الملك العادل يحسنون الشعر ويكرمون الشعراء الذين توجوهم بتيجان الفخر بأشعارهم ومدائحهم فخلدتهم على مر الزمان ؛ واقترن اسم الشاعر كمال الدين بن النبيه بالملك الأشرف موسى صاحب حلب ، والراجح الحلي بالملك الكامل محمد صاحب مصر ، وشرف الدين بن عنين بالملك المعظم عيسى صاحب دمشق . هذا الى ما شادوه من المدارس ، وما أنشؤوه من المستشفيات ، والربط[1] ، والخوانق[2] . وتبوأت دمشق في عصرهم مكاناً ثقافياً بين البلاد الاسلامية الى جانب مركزها الحربي ، وغدت كعبة القصاد من العلماء والشعراء والادباء .

وإن اتساع دائرة الحروب في البلاد الشامية واستمرارها مدة قرن كامل أدى إلى وفود كثير من الأمم والشعوب على هذه البلاد حتى ازدحمت بهم كالفرس ، والاتراك ، والجراكسة ، والكرج ، والمغول ، والفرنج سواء عن طريق الأسر أو الاسترقاق أو بسبب التجارة أو بدافع الانخراط

---

(١) معاهد دينية اسلامية هي كالاديرة عند المسيحية ، وقد انشأت للمنقطعين للعلم

(٢) فارسية انشأت للعبادة والتصوف واول من احدثها في مصر صلاح الدين الايوبي

في الجندية ، أو تحصيلاً للعلم ؛ فنشأ من هذا الاختلاط ، والتزاوج بين هذه العناصر امتزاج بالدم ، واتساع الآفاق الفكرية ، وانطلاق القرائح مما ساعد على بعث نهضة علمية ، وانتشار نواح كثيرة من الثقافة الاسلامية العربية ، فضلاً عما ترك ذلك الاختلاط من عادات اجتماعية وأخلاقية كان لها أثر كبير على العلم والأدب واللغة ، فكثر الشعراء وازدحموا في ابواب الملوك والسلاطين ممن لهم ولع بالشعر وذوق بالأدب ومشاركة باللغة .

وأشهر من هؤلاء الشعراء ابن منير الطرابلسي (٥٤٨) وابن الساعاتي (٦٠٤) وامين الدين الحلبي (٦٤٢) وصدر الدين حمويه (٦٥٢) ونور الدين الاسعردي (٦٥٦) وصدر الدين البصري (٦٥٩) وشرف الدين بن عنين (٦٣٠) وفتيان الشاغوري (٦٥١) وعرقلة الدمشقي (٥٦٧) وغيرهم كثير ممن لهم دواوين شعر حفظتها لنا مكتبات الشرق والغرب .

ومن كتّاب ذلك العصر القاضي الفاضل عبدالرحمن بن علي وزير السلطان صلاح الدين [٥٩٦] وهو صاحب الطريقة الفاضلية بالانشاء . ومن علماء اللغة ضياء الدين بن الاثير الجزري (٦٢٨) وكان دخل في خدمة السلطان صلاح الدين على يد وزيره القاضي الفاضل ، وهو صاحب كتاب المثل السائر ، وكتاب الوشي المرقوم ، وكتاب الجامع الكبير ، والبرهان في علم البيان .

وربما لسعة رقعة الممالك الاسلامية وأقطارها ، وتعدد دولها ، رغب ملوكها وخلفاؤها بأن تدون أعمالهم وسيرهم ؛ ويكون لهم تاريخ يشيد بمآثرهم ، فقربوا إليهم رجال التاريخ ليضعوا لهم مؤلفات عن سير الملوك والعظماء

وخطط المدن ، وتراجم الرجال ؛ فألف أسامة بن منقذ من امراء شيزر (٥٨٤) كتاب الاعتبار ، وألف عماد الدين الاصبهاني الكاتب (٥٩٧) للسلطان صلاح الدين كتاباً عن الحروب الصليبية . وألف كتاب البرق الشامي في أخبار صلاح الدين وكتاب الفتوح الشامية ، ونصرة الفطرة وعصرة القطرة بتاريخ السلاجقة ، وخريدة القصر وجريدة أهل العصر في تراجم أدباء القرن السادس للهجرة . وألف بهاء الدين بن شداد (٦٣٢) كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين ، وتاريخ حلب ، ووضع شهاب الدين ابو شامة (٦٦٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية وما وقع من الحروب الصليبية . وألف ابو يعلى بن القلانسي الدمشقي (٥٥٥) ذيل تاريخ دمشق ، وهو ذيل تاريخ الصابي صاحب تاريخ الوزراء . وألف ابو القاسم بن عساكر الدمشقي (٥٧١) تاريخ دمشق في ثمانين مجلداً ، والمستقصى في فضائل المسجد الأقصى ، وألف شهاب الدين بن أبي الدم ، الهمداني الحموي (٥٨٣) كتاب التاريخ المعرف بتاريخ ابن أبي الدم ، ويشتمل على تاريخ الاسلام ، وتاريخ المظفري في ستة مجلدات . وألف سبط ابن الجوزي (٦٥٤) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، وألف قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان (٦٨١) كتاب وفيات الأعيان وهو معجم تاريخي . وألف ابن أبي أصيبعة (٦٦٨) كتاب عيون الانباء في طبقات الأطباء ، ألفه لأمين الدولة وزير الملك الصالح . وألف صلاح الدين الصفدي (٧٦٤) كتاب الوافي بالوفيات ، وكتاب أعيان العصر ، وهو مجموع تراجم مشاهير القرن الثامن للهجرة الى أيامه .

واشتهر من علماء اللغة والنحو : ابن مالك الطائي (٦٧٢) صاحب ألفية ابن مالك وغيرها من الكتب ؛ وألف ابن خطيب دمشق تلخيص المفتاح ثم الافصاح في المعاني والبيان وغيرهم كثير .

واشتهر من الفقهاء القطب النيسابوري الفقيه الشافعي (٥٧٨) وجمال الدين المصري المدرّس بالعادلية الكبرى (٦٢٣) وجمال الدين الدولعي باني المدرسة الدولعية بجيرون وخطيب دمشق (٦٢٥) وابن الحرستاني الفقيه الشافعي (٦١٤) ...

ولاعتناء الملوك الأيوبية بالطب والأطباء وحمايتهم ورعايتهم كثر عدد منهم في دمشق ، كانوا يعانون التدريس في المستشفيات أو التدريس في المدارس ، أو يخدمون الملوك واشتهر من هؤلاء : ابو الفرج جرجس ابن يوحنا اليبرودي (؟) وابو الحكم الباهلي (٥٤٩) وحكيم الزمان عبد المنعم الجلياني كان صلاح الدين يرى له ويحترمه ، والحكيم شمس الدين الخسروشاهي (٦٥٢) اتصل بالسلطان الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم ، ومنهم سيف الدين الآمدي (٦٣١) لازم الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة وخدمه . فلما توفي حضر الى دمشق وأنعم عليه الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل انعاماً كثيراً وأكرمه غاية الاكرام وولاه التدريس ، وكان ساكناً بدمشق في قاعة عند المدرسة العادلية . ومنهم موفق الدين بن المطران (٥٨٧) اشتغل في الطب على امين الدولة ابن التلميذ في العراق ثم عاد الى دمشق وبقي طبيباً بها الى حين وفاته ، خدم

الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان رفيع المنزلة عنده ، وأسلم في أيام صلاح الدين ، وكان يعالج المرضى في البيمارستان الكبير . ومنهم مهذب الدين أحمد بن الحاجب (؟) كان طبيباً فاضلاً في الصناعة الطبية ، وخدم في البيمارستان الكبير ولازم الملوك الأيوبيين حتى توفي في حماة . ومنهم شمس الدين بن اللبودي (٦٣١) عمل في البيمارستان الكبير النوري ، ومنهم ابو الفضل بن عبد الكريم المهندس ، وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة وشهرته بها قبل أن يتحلى بمعرفة صناعة الطب ، وأكثر أبواب البيمارستان الكبير من بخارته وصنعته ، وهو الذي أصلح الساعات التي للجامع بدمشق ، وبقي سنيناً كثيرة يطبب بالبيمارستان إلى حين وفاته سنة (٥٩٩) ومنهم سعد الدين بن عبد العزيز السلمي كان علاّمة بارعاً في صناعة الطب ، قد أحكم كلياتها وجزئياتها ، خدم البيمارستان الكبير ثم لازم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل ، وكان حظياً مكيناً في دولته ، وقد ولاه رئاسة الطب ، وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه بصناعة الطب توفي بدمشق سنة (٦٤٤) ومنهم رضي الدين الرحبي لازم صلاح الدين ايام ملكه ثم أخيه من بعده . ثم الملك المعظم ، وقرأ عليه خلق كثير اشتهروا بصناعة الطب وتميزوا بها وتوفي سنة (٦٣١) بدمشق . وكذلك ابنه شرف الدين الرحبي وكان يدرس الطب في الدار التي أوقفها لهذا الغرض الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم ابن علي ، وتوفي سنة (٦٤٧) . ومنهم موفق الدين عبد اللطيف البغدادي ، ومؤلفاته وكتبه مقالاته أكثر من أن تحصى . ومنهم الحكيم عمران بن

صدقة الاسرائيلي (٦٣٧) ومنهم الحكيم موفق الدين يعقوب بن صقلاب ، وكان مشهوراً بشدة استقصائه في تحقيق الأمراض حتى يعالجها على الصواب ، لازم الملك المعظم عيسى وابنه الملك الناصر داود من بعده ، توفي بدمشق سنة (٦٢٥) . ومنهم سديد الدين رقيقة الشيباني (٦٣٥) ومنهم رشيدالدين ابن الصوري (٦٣٩)له من الكتب كتاب الأدوية المفردة . وهذا الكتاب بدأ بعمله في ايام الملك المعظم وجعله باسمه ، واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة ، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون؛ وكان يصطحب مصوراً ومعه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه رشيد الدين بن الصوري الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها. ثم انه سلك ايضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك أنه كان يُري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره ، ثم يُريه إياه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يُريه إياه أيضاً في وقت ذواه ويبسه فيصوره، فيكون الدواء الوحيد يشاهده الناظر إليه في الكتاب ، وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به في الأرض فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين ومنهم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي ويعرف بالدخوار ، انتهت إليه رياسة صناعة الطب ومعرفتها ولم يكن في هذه الصنعة من يجاريه ، وقد حظي

عند الملوك ونال من جهتهم من المال والجاه مالم يناله غيره ، وخدم الملك العادل أبا بكر بن أيوب بصناعة الطب ، وتولى رياسة أطباء مصر بأسرها وأطباء الشام ، وبعد وفاة الملك العادل أقام بدمشق وشرع في تدريس صناعة الطب في داره ويتردد على البيمارستان النوري يعالج مرضاه وتوفي سنة (٦٢٨)[١]

(١) ابن أبي أصيبعة الجزء الثاني

الاجتماع

الى جانب ما تحلى به بنو أيوب من علم وأدب ، كانوا ملوكاً مجاهدين في سبيل نصرة الدين لرد غارات الصليبيين والتتار عن البلاد ، متمسكين بشعائر الاسلام . يقيمون حدوده على كل من سولت له نفسه الخروج على تعاليمه ؛ فهم قد حدوا على الخمر ، وعاقبوا على الرشوة ، وحفظوا حقوق أهل الذمة ، وهذه فقرات من تقليد سلطاني بولاية دمشق المحروسة،من ديوان السلطان الملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٦ ، وفيه تنبيه شديدعلى التمسك بشعائر الدين، فضلاً عن انه قطعة من الأدب تعطينا فكرةعن فن الانشاء لذلك العهد ، وعما انتشر من الموبقات والكبائر بين الناس : (... من المهم عندنا حد الخمر ، فالناس قد تهافتوا على شربها وادمانها ، وجاهروا في افتعالها وعصيانها ، ولم يرد عنهم الحد عليها عن تورد مكانها ؛ ونحن نأمرك أن تقتلع شرها من أصله ، وتسد على شيطانها أبواب سبله ، ولايتم ذلك إلا بأن تجتهد في منع حاملها وتحريم حاملها وإراقة زقاقها ودنانها ، واستهلاك الدواب الحاملة لهاباستهلاك أثمانها ، وأن تتعهد قيناتها بالنفي والاشتهار ،وهتك الاستار، وتنحي على آلاتها بقطع الأوتار وكسر كل ماكان من دُف أو مزمار .

واستعن على أمرك هذا بكل محتسب [١] يتولى الأمر بالمعروف ، وبالعلماء من رجال الله الذين ينظرون بنوره من وراء السجوف، ويعلمون له لا لأمر مرجوّ ، ولا لأمر مخوف ؛ ورجو حينئذ ان يزول هذا الداء وإن كان عضالاً ، وإذا نظر الله في أمرنا في صدق النية كفى المؤمنين قتالاً .

ومن الرعية التي تحت يدك أهل الذمة ، وهم قوم سكنوا بين أظهر المسلمين سكنى الاذلال وبذلوا الجزية فعصموا بها مباح الدماء والأموال ، فعليك أن تملي عليهم ظلّ المعدله، وتنزلهم حيث أنزلهم الله ورسوله من المنزلة ، وأن تحفظ كلاً منهم في نفسه وعرضه ، ولا تحمله ثقلاً يخف عليه حمل بعضه ،

---

(١) الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، ويبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها .

قال المقريزي في المواعظ والاعتبار : واما الحسبة فان من تسند اليه لا يكون الا من وجوه المسلمين واعيان المعدلين، لانها خدمة دينية . وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع اعمال الدولة كنواب الحكم ، وله الجلوس بجامعي القاهرة ومصر يوماً بعد يوم، ويطوف نوابه على ارباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزاره ، وكذلك الطباخون ، يتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقة فيها، ويلزمون رؤساء المراكب ان لا يحملوا أكثر من وسق السلامة ، وكذلك مع الحمالين على البهائم، ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية ، ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلواً ، كل دلو أربعون رطلا ، وان يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهي زرق، وينذرون معلمي المكاتب بأن لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحا ولا في مقتل ، وكذلك معلمي الدوم بتحذيرهم من التغرير باولاد الناس، ويقفون على من يكون سيء المعاملة، فينهونه بالردع والادب ، وينظرون المكاييل والموازين ، للمحتسب النظر في دار العيار ؛ ويختم عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها ، والولاة تشد معه إذا احتاج ذلك ، وجاريه ثلاثون ديناراً في كل شهر .

وأن تحفظ عليه عهده من النقض الا في سبب يحكم بنقضه ؛ ومن احسان السيرة فيهم ألاّ تطلب الجزية من راهب انقطع في صومعته، ولا من شيخ حال الضّعف بينه وبين الانتفاع به كما حال بينه وبين منفعته ؛ وهذا المقدار من هذا الوجه قد بورك في دينارِه ودرهمه ، وخير ما صرفه المرء المسلم في ملبسه ومطعمه فليفرق في الصدقة التي تزيده طيباً ولا تجعل له في الحسنات مثلاً ولا ضريباً .

وههنا كبيرة من أعظم الكبائر ، وقد فشت في الناس حتى صارت صغيرة من الصغائر ، وذلك إن ولاة السوء قد ألفوا تناول الرشوة التي تغير حكماً وتختم على القلوب ختماً وسماها الله سحتاً و إثماً ؛ وأنت يمنعك عنها دينك الذي هو عصمة أمرك وعلو نفسك ، الذي يفضي بعلو قدرك ، ولكن ربما استنزل الهوى بعض أصحابك فملأ بها عينه وحال بين الحق وبينه ، فأحص على هؤلاء الأنفاس عداً ، واسلك بين أيديهم ومن خلفهم رصداً ، وكن كالطائر الحذر الذي يظنّ كل شيء حجراً ويداً .)

وأخبرنا ابو شامة في ذيل الروضتين : أن الملك العادل لما أبطل ضمانة الخمر والقيان سنة ٦١٢ كان الذين يريدون شرب الخمر يتكلفون الخروج الى ضياع جبل سنير في صيدنايا ومعربا ، ونحوهما . وكان واليه المعتمد أقام رجالاً على عقاب قاسيون وجبل الثلج ، وحوالي دمشق بالجامكية والجراية يحرمون أحداً يدخل دمشق بمسكر ، فكان أهل الفساد يتحيلون ويجعلون زقاق الخمر في الطبول ، ويدخلون بها الى دمشق فمنع ذلك .

ولما قدم ابن جبير الرحالة دمشق شاهد من أخلاق أهلها وعاداتهم في ذلك العصر نواح مختلفة دوّنها في رحلته المشهورة قال : (... ومن عجيب أمرهم تعظيمهم للحاج على قرب مسافة الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله ، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ويتهافتون عليهم تبركاً بهم ؛ ومن أغرب ما حدثناه من ذلك أن الحاج الدمشقي مع من انضاف اليهم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق في هذا العام الذي هو عام ثمانين ، ضرع الناس لتلقيهم الجم الغفير نساءً ورجالاً ، يصافحونهم ، ويتمسحون بهم ؛ وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، وأخرجوا اليهم الأطعمة . فأخبرني من أبصر كثيراً من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز ، فاذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله ، تبركاً بأكل الحاج له ، ودفعن عوضاً منه دراهم ، الى غير ذلك من الأمور العجيبة . . .

وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ناعم البال ، وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء ؛ ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان . . .

ومن عادات أهل دمشق وسائر البلاد المستحسنة المرجو لهم فيها من الله عز وجل قبول ، أنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفه بجوامعهم إثر صلاة العصر يقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين الى ربهم التماساً لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات ، ٣

فلا يزالون واقفين داعين متضرعين الى الله عز وجل وبحجاج بيت الله الحرام متوسلين الى أن يسقط قرص الشمس ، ويقدروا نفر الحاج فينفصلوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات ، وداعين الى الله عز وجل في أن يوصلهم اليها ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك .

ولاهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة ، وذلك انهم يمشون أمام الجنازة بقرّاء يقرؤون القرآن بأصوات شجية ، وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً ، يرفعون أصواتهم بها فتتلقى الآذان بأدمع الأجفان .

وجنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من الجامع ، فاذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها ، إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته ، فان الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه في القراءة إلى موضع الصلاة عليه . وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بأزاء باب البريد فيصلون أفراداً . ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤونها ، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم ، ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة إلى الدين ، فتسمع ماشئت من صدر الدين الدين ، أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو مجيبه أو زكيه أو نجيبه إلى ما لا

غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة ؛ وتتبعها ولا سيما في الفقهاء بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الاسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفريقين إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر ، ثانياً عطفه وقذاله ؛ فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعّاظهم واحداً واحداً بحسب رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر ونبّه على خدع الدنيا وحذر وأنشد في المعنى ما حضر من الاشعار ، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفي ثم قعد وتلاه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرغوا ويتفرقوا ، فربما كان مجلساً نافعاً لمن يحضره من الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة ؛ وإذا لقي أحداً منهم آخر مسلماً يقول جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطياً . والجد عندهم عنقاء مغرب . وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء ، فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلّوا بسمات ربات الجمال ، لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه ...

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها

أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخري ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة ، قد سيموا تعنيفاً وأوثقوا تكتيفاً ، وهم يعتقدون تلك الهيئة تميزاً لهم في ذوي الخصوصية وتشريفاً ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطاً في الاعضاء وراحة من الإعياء . والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، فقد اتخذوا هذه المشية بينهم سنناً ...)

ومن عادة أهل دمشق ، أنهم لا يعملون يوم السبت ، بل يتخذونه يوم لهو ومرح ، وهذه عادة جارية في العصر العباسي ، ذكرها الاستاذ حبيب زيات في مجلة المشرق سنة ١٩٣٨م ، وأفرد لها باباً باسم سبوت دمشق ، ثم قال : وقد توسع القزويني في وصف سبوت دمشق وشرح أوفى شرح تعظيم الناس لها ومغالاتهم فيها فقال : (في هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك حَجْر ، ولا للوالد على الولد ، ولا للزوج على الزوجة ، ولا للاستاذ على التلميذ ، فإذا كان أول النهار يطلب كل واحد من هؤلاء نفقة يومه ، فيجتمع المملوك بإخوانه من المماليك ، والصبي بأترابه من الصبيان والزوجة بأخواتها من النساء ، والرجل أيضاً بأصدقائه . فأما أهل التميز فيمشون إلى البساتين ولهم فيها قصور ، ومواضع طيبة ، وأما سائر الناس فإلى الميدان الأخضر ، وهو محوّط ، فرشه أخضر صيفاً وشتاءً ، وفيه الماء الجاري ، والمتعيشون يوم السبت ينقلون إليه دكاكينهم ، وفيها حلق المشعبذين والمساخرة ، والمغنين والمصارعين

والقصّابين ، والناس مشغولون باللعب واللهو إلى آخر النهار ، ثم يفيضون منها إلى الجوامع ويصلّون فيها المغرب ، ويعودون إلى أماكنهم .)

وكان أهل دمشق حسبما ذكر القزويني أيضاً ، أميل الناس إلى اللهو واللعب ، فلم تكن تكفيهم البطالة والتعييد يوم السبت وحده حتى أضافوا إليه يوم الثلاثاء أحياناً . ومن أشهر الأماكن التي كانوا يقصدونها بالزيارة هذين اليومين الربوة المشهورة في أيام الصيف ، وكانت تجري فيها بعض المنكرات لكثرة اختلاط الناس فيها واجتماع باعة اللهو من أرباب الحلق والملاعيب والشعوذة وخيال الظل وأشباههم ، ووفرة من يتخطر فيها من العلماء والجواري والنساء في أملح زي وأفتنه . ولذلك لما ولي الأمير سيف الدين الحنبلي آقمر الصاحبي نيابة دمشق (سنة ٧٧٨ هـ ١٣٧٦ م) باشرها شهرين وعشرين يوماً فأزال الفساد وأنكر المنكر ، وأمر الناس بفتح الأسواق يوم السبت والثلاثاء .

وفيما عدا الربوة كان أرباب البطالة والمتنزهون يزدحمون في الميدان الأخضر ، في مواضع المرجة اليوم وفي الشرف الأعلى في جواره . ولتاج الدين محمود الصرخدي يصف الشّرف الأعلى يوم سبت :

أشرفْ على الشرف الأعلى ، إذا سنحت
لك الظباء بسرحات الميادين
في يوم سبت ، ترى الوفرات جائلة
على المناكب أمثال الثعابين

يريد بالوفرات ذوائب الغلمان والجواري التي كانت تنوس على ظهورهم مضفورة ، ولذلك شبهها بالأفاعي ، وكان اطلاق الذوائب يومئذ شاملاً ، فيما خلا النساء والغلمان . كثيرين من الرجال حتى بعض الشيوخ منهم ؛ وقد أفاض ابن خروف الأندلسي في وصفها يوم سبت شهده بدمشق فقال :

إذا رحلت عروبة عن حماها تأوّه كل أوّاه حليم
إلى سبتٍ حكى فرعون موسى يجمّع كلّ سحّار عليم
فتبصر كل أملود قويم يميس بكل ثعبان عظيم
إذا انسابت أراقمها عليهم تذكرنا بها ليل السليم
وشاهدنا بها ، في كل حين حبالاً أُلقيت نحو الكليم

وبالاجمال كانت أيام السبوت في الفيحاء من أكبر الأعياد والمواسم ، تغلق فيها الأسواق ، وتعطل الدواوين والمكاتب ، وتهجر من أجلها حلقات التدريس في المساجد ، وتزدحم في الساحات والميادين أصنافُ الخلق بأغرب الأزياء من الثياب المشهّرة والمنسوجات البلدية الموشّة الفائقة الصنعة ، فكان يرى الناظر من بهجة ألوانها واختلاف خطوطها ونقوشها ما يزيد تلك الوجوه والقدود رونقاً ونضارة ، وقد اشتهر الدمشقيون في كل وقت بالجمال وحسن التكوين ، ولذلك قال شهاب الدين الشاغوري من قصيدة يصف فيها دمشق :

كم يوم سبت بديع في دمشق أتى بالحسن من يوسف الصديق يحكيه

وقد افتتن الغرباء بمثل هذا الحسن والمنظر الأنيق ، فقال نور الدين

الغرناطي الأندلسي يمدح دمشق :

أما دمشق فجنة ... ينسى بها الوطنَ الغريب
لله أيام السبو ... ت بها ومنظرها العجيب
أنظر بعينيك هل ترى ... إلا محباً أو حبيب
في موطنٍ غنّى الحما ... م به على رقص القضيب
وغدت أزاهر روضه ... تختال في فرح وطيب

وقال ابن خروف أيضاً بعد ما تقدم من نظمه :

تمتع من دمشق ومن هواها ... فإن هواءها للنفس قوتُ
لها من كل فاكهة ضروب ... تقسمّها على الناس البخوتُ
وميدان له جمع بديع ... به تُزهى على الجُمع السبوتُ

وكان القضاة والشيوخ يجتمعون أيام السبوت في الرياض والبساتين ويتذاكرون على تغريد الأطيار وخرير الأنهار . ومن الجواسق التي عرفت بمثل هذه الاجتماعات السبتية قصر القاضي قطب الدين ابن شيخ السلامية ، ناظ الجيوش الاسلامية بالشام المتوفى سنة ٧٣٢ هـ . وكان فاضلاً يحب الفضلاء ؛ والادباء يترددون إليه ، ويجتمعون على طعامه وفي بستانه أيام السبوت ويحسن إليهم ويبرهم .

واشتهر من الأطباء رضيّ الدين الرحبي المتوفى سنة ٤٣١ هـ بعادة لزمها في كل أيامه ولا يخلّ بها ، وهي أنه كان يجعل يوم السبت أبداً لخروجه إلى بستانه وراحته فيه ، ويتركه يوم بطالة عن الأشغال

ولما قدم دمشق الشيخ شمس الدين أبو المظفر سبط ابن الجوزي كان له مجلس كل يوم سبت، بكرة النهار عند السارية التي عند مشهد علي زين العابدين ، وكان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع الاموي ، ويتركون البساتين والفرج في الصيف حتى يسمعوا معياده ، ثم يرجعون إلى بساتينهم يتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن ؛ فيجمعون في آن واحد بين الجد والهزل اهـ .

الاقتصاد

كان العصر الأيوبي بدمشق (وهو ما بين استيلاء صلاح الدين وغزو المغول) عصر نهضة عامة في جميع مرافق الحياة، ذلك أن دمشق أصبحت عاصمة الحكم ومقر البلاط السلطاني ومركزاً للحياة الحضرية والسياسية، بعد أن فقدت هذا المركز قروناً طويلة منذ انقراض دولة بني مروان. وللبلاط في عاصمة الحكم تأثير كبير على حياتها السياسية والاقتصادية، فدمشق في هذا العصر ازدحمت بالأمراء، والقواد، والجنود على اختلاف أجناسهم من أكراد ومماليك وموالي؛ وكانت لهم موارد من المال ينفقونها على حاجاتهم الضرورية ومتعهم النفسية، وقد عادت بالرفاهية والرخاء على الشعب الدمشقي.

وكان من عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية في دمشق مجاورتها للدولة اللاتينية التي تأسست في فلسطين عقب الحرب الصليبية الأولى، وكانت لها صبغة تجارية إلى جانب عملها الحربي. وتوطدت العلاقة التجارية بين هذه الدولة وعاصمة الأيوبيين لا سيما في أيام الهدنة والسلم، لان دمشق امتازت بمركزها الاقتصادي في الشرق، بوقوعها على طريق القوافل الآتية من الهند وفارس والعراق، تحمل بضائع هذه الأقطار إلى الثغور الشامية التي غصت بتجار البندقية، وبيزه، وجنوة، ومرافئ فرنسا

الجنوبية ، واستفادت دمشق فائدة كبرى من هذه الحركة الاقتصادية التي أوجدتها الحروب الصليبية ، وكان لتجار هذه الأمم قصور في الشام لسكناهم ، وسفنهم تغدو وتروح في البحر الأبيض المتوسط بالتجارة الشامية ، ويقول صاحب خطط الشام : وكان للأوربيين قناصل في الشام منذ الزمن الاطول ، وأول قنصل كان للبنادقة في مدينة دمشق سنة ١٣٨٠ م واسمه فرنسسكو داندلو ، وكانت دمشق مستقر القناصل . وغدت بلاد الشام في المدة الواقعة بين الحرب الصليبية الأولى والحرب الصليبية الثالثة مركز العلاقات التجارية بين الفرنج والمسلمين في شرقي بحر الروم ، وكان في خلال هذه المدة يُرى التاجر الايطالي يهرع في أعقاب الفارس الفرنجي وازداد الانتعاش الاقتصادي بين المملكة اللاتينية والحواضر الاسلامية بمنتجات أسواق دمشق من جهة وبغداد من جهة أخرى عن طريق مدينة الرقة ونهر الفرات ، وغدت حاصلات دمشق الزراعية : كالبطيخ والمشمش وغيره من الثمار والبقول ينقل إلى بلاد الغرب مع منسوجاتها كالأقمشة القطنية ، والدمقس ، والنحاس المكفت بالفضة ، والسكر ، والزجاج ، حتى انتشرت صناعات وأزياء جديدة في الغرب . وعقد السلطان صلاح الدين الأيوبي مع جمهورية بيزا معاهدة في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي حصل بها البيزيون على امتيازات تجارية لرواج الصادر والوارد . وعقدت هدنة بتاريخ ٦٩٢ هـ بين الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ملك مصر والشام

وبين ملوك برشلونة وقشتاله ، وطليطلة ، وليون وبلنسية واشبيلية ، ومرسية وجيان ، كان بموجبها يرسل الفرنج إلى الثغور الاسلامية الحديد ، والبياض والخشب وغير ذلك ، وأن سائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الديوان المعمور .

(وصار تجار الافرنج بفضل صلاح الدين ثم أخلافه من بعده يغدون ويروحون في البلاد الشامية والحرب ناشبة بين الفريقين لا يمس أحدهم بأذى ولا يعتدي على حقوقه حتى اضطر تجار الصليبيين أن يعاملوا تجار العرب على هذه الصورة في البلاد التي في أيديهم إلى آخر مدة الحرب)[1] .

وقد أشار ابن جبير إلى هذا فقال : ... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الامنة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون في حربهم ، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً .

ووصف دمشق الرحالة (لودلف فون سوخم) وقد قدم الشرق

---

(١) خطط الشام .

١٣٣٦ — ١٣٤١ م فقال : ودمشق عظيمة فخمة جميلة وغنية بكل أنواع المتاجر وفي كل ناحية منها شيء مبهج ، وإن كانت تغلب عليها الصنعة ، فالطعام كثير ، وكذلك التوابل والحجارة الكريمة ، والحرير واللآلئ والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسورية والبلاد الواقعة إلى جهتنا (أوربا) من البحر المتوسط وكل ما يتمنى المرء يجده فيها . . . فأنهارها وبساتينها مهيأة للانسان ليستمتع بها ويتنعم ، وهي كثيرة السكان إلى حد لا يصدق ، ويقيم فيها الصناع المختلفون والتجار ، وتزين داخلها الحمامات الكثيرة ، والطيور التي تصدح طول العام ، وغير ذلك من المبهجات والامور السارة .

وتقوم صناعاتها كل في حي خاص . وكل صانع يجعل أمام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته عرضاً بلفت النظر ويغري بالشراء ، وكذلك يفعل التجار في سلعهم ، وكل ما يصنع فيها متقن ، والتجار الأغنياء يحتفظون بالطيور في أقفاص أمام بيوتهم . . . ومع أن المدينة مزدحمة بالسكان ، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة ، فليس ثمة من يذكر أن أحداً قتل في دمشق ، وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع[1] .

وحدثنا المقريزي في حوادث سنة ٦٣٨ قال : أذن للفرنج في دخول دمشق ، وشراء السلاح ، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق ، فأنكر المسلمون ذلك ، ومشى أهل الدين منهم إلى

---

(١) رواد الشرق العربي لنقولا زيادة ص ١٨٣ .

العلماء واستفتوهم فأفتوا بتحريم بيع السلاح للفرنج .

ويعدد لنا البدري وهو من رجال القرن التاسع للهجرة صناعات دمشق فيقول : (ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه ، ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه ، ومنها عمل القماش الهرمزي ، على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله ، ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصور لأحياء القصور ، وأموات القبور ، وبها أيضاً عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه . وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع . وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقيّ أوصاله . وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغتها المرضيه . وفيها تعمل صناعة الزموط والاقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع . وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير ، وفيها تعمل صناعة السلاح بما فيها من الأعاجيب والاقتراح وفيها تعمل صناعة الموشى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون . وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس . وفيها صناعة ألواح الصقال ودهن ألواح صفار الكتاب ، وجفان القصع ، وتفصيل القبقاب) .

ولقد مر بدمشق في هذا العصر سيمون سيكولي الإيطالي ، فأعجب بما رآه في أسواق دمشق من التحف وأنواع المصنوعات الدمشقية فقال : لو كنت خبأت دراهمك في عظم ساقك لما توقفت عن كسره لتشتريها !

المكوس : كانت عكا وصور مرفئين تجاريين تدخل عن طريقهما التجارة البحرية إلى البلاد الداخلية أيام الحروب الصليبية ؛ وقد وصف لنا ابن جبير طريقهم في التمكيس في طريقه إلى عكا ، فقال واخترنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر . . . وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الأفرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل ... فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً ، وأكثر المعترضين في هذا المكس المغار به ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين .

وصلنا إلى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة ، فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلي ، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان ، والضامن له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه ، فمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضامن . وضمان هذا الديوان بمال عظيم ؛ فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه وطُلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلعه سبيله فنزل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل . فنزلنا بها في بيت أكترياه من نصرانية بازاء البحر .

وعكا هي قاعدة مدن الافرنج ومحط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام ، مرفأ كل سفينة والمشبهة بعظمتها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ؛ سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطئ الاقدام) .

وعن حالة المكوس في أيام الدولة الأيوبية يقول استاذنا العلامة كرد علي في خططه : (والغالب أن المكوس والضرائب كثرت في أواخر حكم العباسيين والعبيديين في الشام وبقي في البلاد رسوم كثيرة حتى أبطلها نور الدين ، وأبطل آبق الصوفي الاقساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة .

ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ه أزال المكوس ، وكانت الولايات في أهلها قد ساءت ، وأسرفت ، وكذلك فعل أخوه أبو بكر بن أيوب فانه أبطل كثيراً من المظالم والمكوس ، وطهّر بلاده من الفواحش ، والخمور ، والقمار ، وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مئة ألف دينار .

ومع كثرة احتياج البلاد للمال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على قتال الصليبيين ، كانت الجباية إلى الرفق في الجملة ببلاد الشام ؛ فأطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى باخراج ، والجزية وأسقط صلاح الدين فريضة الآبان المقسطة على أعمال دمشق ، وضياع الغوطة والمرج ، وجبل سنير ، وقصر حجاج ، والشاغور ، والعقيبة ومزارعها .

وكتب القاضي الفاضل إلى صلاح الدين لما عزم على الحج وأراد

صرفه عنه : يا مولانا ، مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به إلى الله ، وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ، ومن تسلط المقتطِعين على المقتطَعين ما لا ينادى وليده ، في وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة ، والسيف الذي يقطر دماً ما لا زاجر له ؛ وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات إقامة وجوه الدخل بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل ، وفرع من غير أصل .

وخلف الملك الأفضل ستمائة ألف دينار عيناً ، ومئة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ، ومئة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مئة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير ، وصندوقين كبيرين فيهما إبر ذهب برسم الجواري والنساء ، عدا الثياب والطرائف والقطعان والخيل والبغال والرقيق .) يستدل من ذلك كله على أن ما حصله هذا الملك من الثروة إنما كان عن طريق الارهاق والضغط في حيازة المال .

ووضع الملك المعظم المكوس والخمور بالضمان ، ولما أنكر ذلك فخر الدين بن عساكر على الملك عاقبه بأن انتزع منه المدرسة التقوية والصلاحية بدمشق)[1]

ونجد اليوم على السواري الأربع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من الغرب أربع وثائق في إبطال المكوس ، كتبت كل وثيقة على سارية : تاريخ الأولى سنة ٨٦٣ هـ على عهد قايتباى الحمزاوي كافل

(١) خطط الشام ج ٥ ص ٦٩

الممالك الشامية أبطل بها الرسم المقرر على الأسواق والطواحين وغيرها من المكوس بدمشق .

والثانية كتبت سنة ٨١٥ هـ وهي مما أمر به الظاهر جقمق بإبطال المكوس على الأقمشة الحمصية ، وفرع الأردية ، وفرع القطن ، وغيرها .

والثالثة بتاريخ ٨٥٢ هـ تقول بأنه ورد مرسوم شريف من مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق بإبطال بعض المكوس ومنها التمر ، والعفص ، والسمك البوري ، والحناء ، والقماش المصري .

والرابعة : فيها ذكر القلى ، والخروع ، والقلقاس ، وجلود الجاموس ، والماعز .

العمران

لم تكن النهضة العمرانية بدمشق بأقل من النهضتين الثقافية والاقتصادية بل هي تعد أبرز ظاهرة في العصر الأيوبي . فان ما بني فيها من قصور ، ومدارس ، وربط ، ومساجد ، وخوانق ، ومارستانات ماثلة آثاره للعيان ، تدل على مقدار ما كان يتمتع به أصحابها من الثروة والرخاء ، وعلى مقدار تمسكهم بشعائر الدين ، وحبهم للعلم ، وتكريمهم للعلماء ، وعلى مبلغ اعتنائهم بالمرض ، وعطفهم على الغرباء . هذا فضلاً عن اهتمامهم بالمنشآت العسكرية .

وصف ابن جبير دمشق : ويصف ابن جبير دمشق وأسواقها ، وأبوابها فيقول : لهذه البلدة ثمانية أبواب : باب شرقي — وهو شرقي — وفيه منارة بيضاء ؛ ويلي هذا الباب باب توما وهو أيضاً في حيز الشرق ؛ ثم باب السلامة ؛ ثم باب الفراديس وهو شمالي ؛ ثم باب الفرج ؛ ثم باب النصر وهو غربي ؛ ثم باب الجابية كذلك ؛ ثم باب الصغير ، وهو بين الغرب والقبلة . والمسجد الجامع مائل إلى الجهة الشمالية من البلد ، والأرباض به مطيفة إلا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيراً ، والارباض كبار ؛ والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ولذلك ما يسرع الحريق إليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي

ثلاث مدن ، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً ، وحسنُه كله خارج لا داخل .

الكنيسة : وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

المدارس والمارستانات : وفي هذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديمان وحديث والحديث أحفلها وأكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ، وله قومة بأيديهم الازمّة المحتوية على أسماء المرضى ، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية ، وغير ذلك ، والأطباء يبكرون إليه من كل يوم ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم .

والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد كثر ، وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم . وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون ...

الرباطات : وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة يضطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر ... ومن أعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في أعلاه مساكن لم ير أجمل اشرافاً منها ،

وهو من البلد بنصف الميل . له بستان عظيم يتصل به .

القلعة : ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد وهي بأزاء باب الفرج من أبواب البلدة ، وبها جامع السلطان يجمع فيه .

الحمامات : وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام ، وفي أرباضها ، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء ، يجري الماء فيها كلها ؛ وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بها كثيرة ...

الاسواق : وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاماً ، وأبدعها وضعاً ولاسيما قيساريانها ، وهي مرتفعات كأنها الفناديق ، مسقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بصيغتها وأغلاقها الجديدة ، ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي .)

الاوقاف : وقال في موضع آخر : ... ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين ، وأرض بيضاء ، ورباعاً ، حتى أن البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع مافيها ، وكل مسجد يستحدث بناءه ، أو مدرسة ، أو خانقاه يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها ، وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة ، ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد ، أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة ،

وتعين لها من مالها الاوقاف ، ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك ، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل) .

وصف ابن بطوطة للاوقاف : ولما دخل ابن بطوطة دمشق بعد ابن جبير هاله ما رأى من كثرة الاوقاف وتنوع أغراضها فقال : والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطاها من يحج عن الرجل منهم كفايته ؛ ومنها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ، ويتزودون لبلادهم ؛ ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك ؛ ومنها أوقاف تسوى ذلك من أفعال الخير .

مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني ، وهم يسمونها الصحن فتكسرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم ، اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني ، فجمعها وذهب الرجل إليه فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن ، وهذا من أحسن الأعمال ؛ فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبراً للقلوب .)

دمشق الايوبية : تغيرت دمشق عما كانت عليه في عصر الفاطميين إذ أنها أخذت بالاتساع منذ عهد نور الدين حتى تجاوزت السور ، فأنشئ ضاحيتان خارج دمشق هما : العقيبة وتتبعها سويقة صاروجا [١] ، ثم الشاغور . واتسعت هاتان الضاحيتان من جراء ازدهار المدينة الاقتصادي فبني في كل منهما مسجد [٢] .

الاسواق : وكثرت الأسواق في دمشق وتعددت وازدادت اتساعاً بمرور الأيام حتى بلغت في سنة ٨٨٣ هـ مئة وتسعة وثلاثين سوقاً ذكرها

---

(١) نسبة إلى صارم الدين صاروجا ؛ هو الأمير صارم الدين صاروجا بن عبد الله المظفري ، كان أميراً في أول دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون بالديار المصرية وكان صاحب أدب وحشمة ومعرفة ، ولما أعطى الملك الناصر تنكز إمرة عشرة جعل صاروجا هذا آغاه له وضمه إليه ، فأحسن صاروجا لتنكز ودربه واستمر إلى أن حضر الملك الناصر من الكرك اعتقله ثم أفرج عنه بعد عشر سنين تقريباً ، وأنعم عليه بامرة في صفد ، فأقام بها نحو سنتين ونقل إلى دمشق أميراً بها بسفارة تنكز نائب الشام ، فلما وصل إلى دمشق عن له تنكز خدمته السالفة وحظي عنده ، وصارت له كلمة بدمشق ، وعمر بها عمائر مشهورة به ، منها السويقة التي خارج دمشق إلى جهة الصالحية ، ولما أمسك تنكز قبض على صاروجا ، وحضر مرسوم بتكحيله فكحل وعمي ، ثم ورد مرسوم بالعفو عنه ، ثم جهز إلى القدس الشريف فأقام به إلى أن مات في أواخر سنة ٧٤٣ هـ (شذرات الذهب)

(٢) ولمسجد العقيبة حكاية رواها لنا ابن خلكان قال : كان في العقيبة في زمن الملك الأشرف موسى بن الملك العادل خان يدعى بخان ابن الزنجاري ، قد جمع أسباب الملاذ ، ويجري فيه من الفسوق والفجور مالا يحد ولا يوصف ، فقيل له عنه : إن مثل هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين ، فهدمه وعمره مسجداً جامعاً ، غرم عليه جملة مستكثرة ، وسماه الناس جامع التوبة ، كأنه تاب إلى الله تعالى وأناب ما كان فيه) وما زال هذا الجامع تقام فيه الصلوات إلى زماننا .

يوسف بن عبد الهادي في كتابه [نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق] غير التي أهمل ذكرها .

سوق تحت القلعة : وأشهر هذه الأسواق سوق تحت القلعة ، وصفه لنا أبو البقاء البدري قال : ومن محاسن الشام تحت قلعتها فانها منهل للغريب ومرتع للقريب ، وهي ساحة سماوية كبركة الرطلي (حي من أحياء القاهرة) في الوسع ، لاجتماع البرية ، تحفها الدور وتعلوها القصور ، ويلحقها كل ما يرومه الانسان ، وتشتهيه الشفة واللسان ، لا يحتاج فيها ، سكانها لحاجة من المدينة ولا لجيرانها ، فيها دار البطيخ الذي يباع فيه جميع فواكه البلد . وبه العين المشهورة بالمجمع على برودة مائها وعذوبته وخفته . وتحت القلعة سوق للقماش المذروع ، وسوق قماش للمخيط ، أحدهما للرجال ، والآخر للنساء ، وبها سوق للفرا والعبي وغير ذلك . وبها سوق السقطيين ، وسوق النحاس ، وبها سوق السكاكينيين ، وبها سوق القريبين وبه للآرمين (كذا) وبها سوق قماش الخيل والبغال والبهائم والاغنام ، وبها سوق القشاشين ، وبها سوق المدهون والخضريين ، وبها سوق المحايريين والنجارين والخراطين ، وبها سوق النقليين ، وبها دار الخضر ، وبها سوق المناخليين ، والزجاجين .

وأما ساحة تحت القلعة ، فانك لا تستطيع أن ترى أرضها لكثرة ما به من المتعيشين ، والوظائفية ، ويتخلل بينهم أرباب الحلق والغالاتية والمضحكون ، وأصحاب الملاعيب ، والحكوية ، والمسامرون وكل ما

يتلذذ به السمع ويسر العين، وتشتهيه النفس صباحاً ومساءً على هذا لا يفترون؛ لكن المساء أكثر اجتماعاً ويستمرون إلى طلوع الثلثين. وهو عبارة عن ثلاثة طبول متفرقة بأعلى القلعة يضربون الثلث الأول كل واحد منهم ضربة، والثلث الثاني من الليل يضرب كل واحد ضربتين، والثلث الآخر من الليل يطلع المؤذن على منارة العروس بالجامع الأموي، ويعلق لهم قنديل الاشارة فيضرب كل واحد منهم ثلاث ضربات ويسوق الثلثين من التسبيح والأذان الأول إلى السلام ينتهي الضرب.)

الشرفان: وأول ما بدأت الأبنية تظهر خارج سور دمشق على الشرفين: القبلي والشمالي اللذين يطلان على المرج الأخضر غربي المدينة، وقد شبهوه بصدر الباز لأن وادي بردى ينضم من رأسه، ثم يعلوه جبلان هما كالرأس للباز ثم يتسع فيكون الشرفان كالأجنحة له.

فالشرف القبلي يمتد من جامع الأمير تنكز في حكر السماق[1] إلى قبور الصوفية؛ والشمالي يمتد من قبة الطواويس إلى النيرب، وكان فيهما أجمل العمائر وأجلها تسكنها الطبقة الممتازة من الناس. وأشهرها القصر الأبلق الذي بناه الملك الظاهر بيبرس البندقداري على الشرف القبلي، ثم بنيت على انقاضه التكية السليمانية فيما بعد.

القصر الابلق: قال شيخ الربوة: وسمي بالقصر الأبلق لكونه مبنياً

---

(١) هو شارع النصر اليوم حتى قبور البرامكة.

بالحجارة البيض والحجارة السود . ووصفه ابن طولون فقال : كان من عجائب الدنيا ، يشرف على الميدان الأخضر شرقيه ، أنشأه الملك الظاهر ركن الدين عقب رجوعه من حجته في المحرم سنة ٦٦٨ هـ كذا رأيت هذا التاريخ على بابه الشمالي ، وعلى أسكفته ضرب خط من رخام أبيض ، ووسطه مكتوب : عمل إبراهيم بن غنائم المهندس[1] . وبابه الآخر ينفذ إلى الميدان ، وفي واجهته البلقاء ثلاثون شبكاً سوى القماري ، ووسطه قاعة بأربعة لواوين : قبلي وشمالي ، في صدرهما شاذروانان ؛ وغربي وشرقي في صدر كل منهما ثلاثة شبابيك ، فالغربيات مطلات على الطريق الآخذ إلى الحمام ، وتربة الصوفية ، والشرقيات مطلات على الميدان ، وعلى واجهته الشرقية مئة أسد منزلة[2] صورها بأسود في أبيض ، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً ، منزلة صورها بأبيض في أسود .

الصالحية : ومن الضواحي التي أخذت بالعمران في أوائل العصر الأيوبي : سفح قاسيون ، ولم يكن يعرف باسم الصالحية إلا في أول القرن السادس حتى هاجر من فلسطين الشيخ أبو عمر المقدسي لاستيلاء الفرنج على الأرض المقدسة ، ونزل بأهله في مسجد أبي صالح من رجال

---

(١) إبراهيم بن غنائم كان من كبار مهندسي ذلك العصر ، وهو الذي تولى بناء الظاهرية بدمشق واسمه منقوش على بابها (بعبارة عمل إبراهيم بن غنائم المهندس رحمه الله)

(٢) الاسدرنك الملك الظاهر بيبرس وشعاره ، كما كان النسر شعار السلطان صلاح الدين .

الصوفية العارفين ، بظاهر باب شرقي مدة سنتين ، ثم صعد إلى السفح وليس فيه من العمارة سوى دير الحوراني ، فقيل لهم الصالحون نسبة إلى مسجد أبي صالح ، وسميت البقعة التي سكنها بالصالحية نسبة إليهم ؛ وكان نور الدين كثيراً ما يزوره في مدرسته التي لم يبق منها إلا أنقاضها على نهر يزيد ، وتعرف بالمدرسة العمرية بطريق جامع الشيخ عبد الغني النابلسي اليوم .

ثم ازدحمت الصالحية بالمدارس والربط ، ونمت بيوتها وأحياؤها فصار فيها سوق ، ومسجد ، ونزل في شرقها طائفة من الأكراد استوطنوها ، وأخذت تحيا حياة مستقلة عن حياة المدينة .

القلعة : والقلعة وتسمى بالأسد الرابض أشهر أبنية دمشق ومنشآتها العسكرية على الاطلاق . بنى على انقضاضها المبعثرة وحجارتها المتراكمة تاج الدولة تتش سنة ٤٧١ هـ فجعل بها دار إمارة وسكنها ، ثم خربت ورممها الملك العادل بل أعاد بناءها ، وفرّق أبراجها على الملوك من بني أيوب فعمروها من أموالهم ، وجدد مواقع الدفاع فيها عملاً بتقدم الفن الحربي بزمانه . وبُني فيها القبة الزرقاء ، وأُنشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب

والقلعة بحالتها الحاضرة على شكل مستطيل طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ١٦٠ متراً له مدخلان ، حوله ثلاثة عشر برجاً ، أحدهما للحمام الزاجل المستعمل في المراسلات وقد نقله من الموصل نور الدين محمود زنكي .

وكان في هذه القلعة مقام السلطان ، ومرافق الحكومة كلها من

مدنية وعسكرية ومخازن السلاح ، وبيت المال . ودار صك النقود ، والسجن ، وفيها مسجدها ، وحماماتها ، ومدافن الملوك ، وقاعاتهم ، وأشهرها قاعة الفضة . وكأن القلعة مدينة مستقلة بنفسها عن دمشق . وقد كان في كثير من الحوادث والغارات تستسلم المدينة ، وتمتنع القلعة لقدرتها على الدفاع ؛ ولم يخرج من المؤسسات الحكومية إلا دار العدل ، وهي مركز القضاء وكانت منذ عهد نور الدين خارج القلعة ؛ وكأنه أراد بذلك أن يكون باب العدل مفتوحاً أمام الناس حتى في الأيام التي تكون القلعة فيها محاصرة .

معسكر الجابية : وكان لدمشق غير القلعة هذه معسكر آخر منذ صدر الاسلام ، وظل قائماً حتى العصر الأيوبي ذلك هو (الجابية) قرب مرج الصفر شمالي حوران ، ويأتي بالدرجة الثانية بعد قلعة دمشق ؛ وباب الجابية منسوب إلى هذا .

الميدان : وكان لدمشق ميدانان يرتادهما السلاطين والأمراء ، يلعبون فيهما بالكرة والصولجان ، ويروضون خيولهم ، وكانا بمثابة معسكرين لانزال الجيوش فيهما عندما تضيق القلعة وتزدحم . أحدهما الميدان الأخضر على مرج فسيح قرب نهر بردى غربي دمشق ، ويسمى أيضاً مرج الزنبقة وآخر أيضاً يقع في جنوب المدينة ، ويمتد على أرض حصباء ، ولهذا دعي ميدان الحصى . قال ابن جبير : وعلى مقربة منها (أي القلعة) خارج البلد

في جهة الغرب ميدانان كأنهما مبسوطان خزّاً لشدة خضرتهما ، وعليهما حلق والنهر بينهما ، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما ، وهما من أبدع المناظر ، يخرج السلطان إليهما ويلعب فيهما بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما ، وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة .)

وعمرت دمشق بما بناه بنو أيوب ورجالهم ، ومماليكهم من العمائر الضخمة الفخمة وأكثرها مدارس للعلم ودور للقرآن ، والحديث ، ذكر منها النعيمي في الدارس سبعاً وخمسين ومئة مدرسة ، خرّجت علماء وفقهاء ، وأدباء ، وشعراء ، وقرّاء كثيرين كانوا رجال النهضة الثقافية في القرون الوسطى بدمشق[1] وإذا مررت في أحياء دمشق ارتفعت أمامك قباب

---

(١) قال صاحب التمدن الاسلامي : إن أول من بنى المدارس في الاسلام الأمراء الاعاجم وذلك عندما ضعف شأن الخلفاء ، وأفضت الحكومة إلى السلاطين والأمراء من الفرس والأتراك ، والديلم ، والأكراد ، وغيرهم ، أصبح هؤلاء في حاجة إلى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم ، فيلجأون إلى تقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة بانشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها ، وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء والفقراء فيكتسبون في ذلك ثقة العامة والخاصة فوق ما يرجون من ثواب .

ومن الاسباب التي حملت الأمراء الاعاجم على إنشاء المدارس والمساجد غير التماس الأجر والثواب أنهم كانوا ينشأون في بلاط السلطان ، ويغلب أن يكونوا من صنائعه او مواليه ، فيكون له عليهم حق الولاء او الرق ، فاذا توفي أحدهم عن مال اوضياع ، وأراد السلطان قبضها فعل ، وحرم أبناءه منها ، فكان الرجل منهم إذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على من يخلفه من ذريته ، فبنى المدارس ، او الزوايا ، اوالربط ، ويقف عليها الاوقاف المغلة من ضياعه ، او أبنيته ، ويجعل في شروط الاوقاف ان يتولاها بعض —

هذه المدارس شاهقة في الفضاء، تنبئ عما كان لها من المقام، والعظمة أيام عزها ومجدها، وقد نقش على أسكفتها أسماء بُناتها، وأوقافها، وتاريخ البناء مما يدهشك ويثير اعجابك. ولنذكر على سبيل المثال أشهر هذه المدارس لا سيما ما هو باق منها حتى الآن:

العادلية الكبرى: تجاه الظاهرية يفصل بينهما الطريق المؤدي إلى باب البريد، وفيها قاعة المحاضرات للمجمع العلمي العربي اليوم. أنشأها نور الدين محمود زنكي، وتوفي ولم يتم بناؤها، فاستمرت كذلك، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين، ثم توفي ولم تتم، فتمها ولده الملك المعظم بعد أن نقل رفات والده العادل إليها. وهي من أعظم مدارس الشافعية بدمشق، درس بها وسكنها جملة من العلماء منهم ابن خلكان.

الظاهرية الجوانية: مقابل العادلية الكبرى، وهي المعروفة الآن، دار الكتب الظاهرية. كانت دار أيوب والد السلطان صلاح الدين،

— ولده، وله نصيب منها، والاوقاف ثابتة، فيأمن بذلك على اولاده الفقر.

ومن أسباب إنشاء المدارس أيضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان، أو الأمير، فقد كانت القاهرة شيعية منذ بناها المعز لدين الله الفاطمي، وكانت الدروس تلقى في الجامع الأزهر على مذهب الشيعة، فلما تولاها صلاح الدين الأيوبي، أبطل هذا المذهب واحيا المذهبين المالكي والشافعي، وانشأ المدارس لتعليم هذين المذهبين.) وحذا حذوه خلفاؤه من بني ايوب، وامراؤهم ونساؤهم وتنافسوا في إنشاء المدارس والربط والخوانق ووقفوا عليها الأموال والقرى والضياع، ورتبوا لها الخبز واللحم والطعام والزيت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام.

ثم آلت إلى أحمد بن حسين العقيقي صاحب الحمام المجاور لها. ولما توفي اشتراها الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر والشام، وبناها مدرسة، ودار حديث، وتربة، وذلك في حدود سنة تسعين وستمائة، ولما توفي دفن فيها، ودفن ابنه في ضريحه فالضريح يضم ملكين عظيمين من أعظم ملوك المماليك الأتراك. بناها إبراهيم بن غنائم المهندس.

دار الحديث الاشرفية: بالعصرونية بناها الملك الأشرف موسى بن الملك العادل سنة ثمان وعشرين وستمائة فتمت في سنتين، وأوقف عليها الأوقاف، وهي التي كان يدرس فيها محدث دمشق في عصرنا المرحوم الشيخ بدر الدين الحسني.

الشامية البرانية: المعروفة اليوم بجامع الشامية بسويقة صاروجا (سوق ساروجة) أنشأتها ست الشام بنت أيوب بن شادي أخت الملك الناصر صلاح الدين، وبها تربتها. وكان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكاً منهم: أخوها الملك المعظم نورنشاه صاحب اليمن، وهو مدفون عندها في القبر القبلي من الثلاثة، وفي الأوسط منها زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد صاحب حمص، وهي وابنها عمر بن لاجين في القبر الثالث يلي مكان الدرس.

العزية البرانية: أنشأها عز الدين أيبك مملوك الملك الأشرف بن الملك العادل، كان نائب الملك المعظم على صرخد، ثم احتيط عليه وعلى

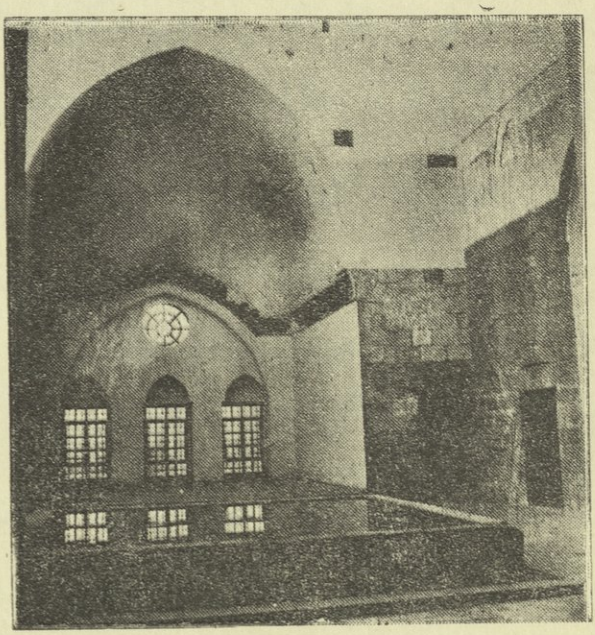

كتاب دمشق في العصر الايوبي

مدرسة الطب القيمرية
يرى فيها البركة ، والايوان ، وبعض الغرف

أمواله ، فمرض وسقط على الأرض وقال : هـذا آخر عهدي ثم مات ودفن عند والده تحت القبة سنة ٦٢٦ هـ ، وهي كائنة على الشرف الشمالي أمام مدرسة التجهيز الأولى في شارع المتنبي اليوم .

مدرسة الطب النورية : هي مدرسة التجارة الأميرية اليوم الواقعة في زقاق البيمارستان . كان نور الدين زنكي أسر في بعض غزواته بعض ملوك الفرنج ، فاستشار الأمراء فيه ، هل يقتله أو يأخذ منه ما يبذله من المال في الفداء ، فاختلفوا عليه ، ثم حسن لديه اطلاقه وأخذ الفداء فابتنى من ذلك المال البيمارستان ومن شرطه : أنه على الفقراء ، والمساكين ، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء ؛ قام بهندسة أبوابه المهندس الطبيب النجار النحات أبو الفضل عبد الكريم الحارثي الدمشقي ، اشتغل بالأدب وعلم النجوم والحديث ، وله عدة مصنفات ، توفي سنة ٥٩٩ هـ .

مدرسة الطب القيمرية : في جوار جامع الشيخ محي الدين بن عربي إلى الغرب . أنشأها وأوقفها الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس القيمري [1] كان من أكبر أمراء القيامرة ومن أبطالهم . المذكورين وصلحائهم المشهورين وهو ابن أخت صاحب

---

(١) قيمر — قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط ينسب إليها جماعة من أعيان الامراء بالموصل وخلاط ، وهم أكراد ويقال لصاحبها أبو الفوارس .

قيمر توفي بنابلس ونقل فدفن بقبته التي بقرب مارستانه بالصالحية . وذلك سنة ٦٠٣ هـ . وترى صورة الوقف منقوشة على أسكفة الباب .

المارستان الصغير : قال ابن العماد في شذرات الذهب : المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النوري ، وكان مكانه في قبلة مطهرة الجامع الأموي ؛ وأول من عمره بيتاً وخرّب رسوم المارستان منه أبو الفضل الأخناوي ، ثم ملكه بعده أخوه البرهان الأخناوي وهو تحت المئذنة الغربية بالجامع الأموي من جهة الغرب ، وينسب إلى أنه عمارة معاوية أو ابنه .

البدرية : على نهر تورا عند جسر كحيل ، ويعرف بجسر الشبليه (في بستان السنبوسكي) بانيها الأمير بدر الدين المعروف بلالا بن الداية سنة ٦٣٩ كان هو وأخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود زنكي . وقد جعلت في حدود سنة ٧٤٠ جامعاً فيه خطبة يوم الجمعة لها نصف الحمام بقرية مسنون والبستان بقرب جسر كحيل ، وفوضت البدرية إلى الشيخ شمس الدين سبط بن الجوزي وكانت سكنه وبها توفي سنه ٦٥٤ هـ .

* * *

كتاب دمشق في العصر الايوبي

من المدارس الحنفية بدمشق البدرية
يرى فيها القبة التي لا تزال الى يومنا هذا

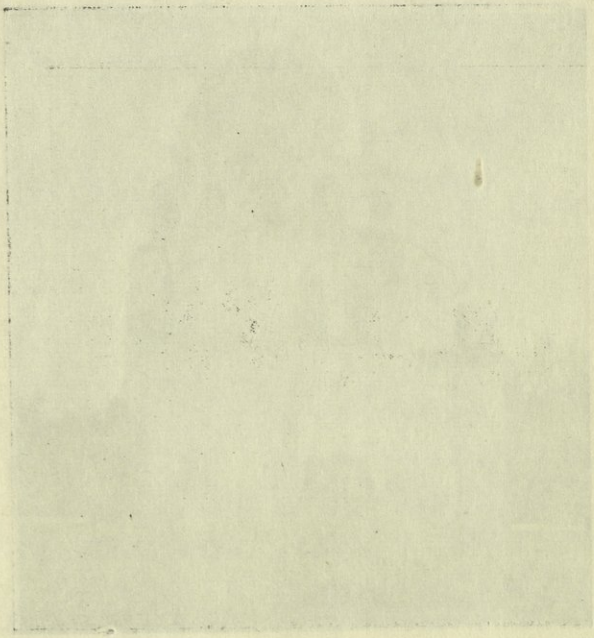

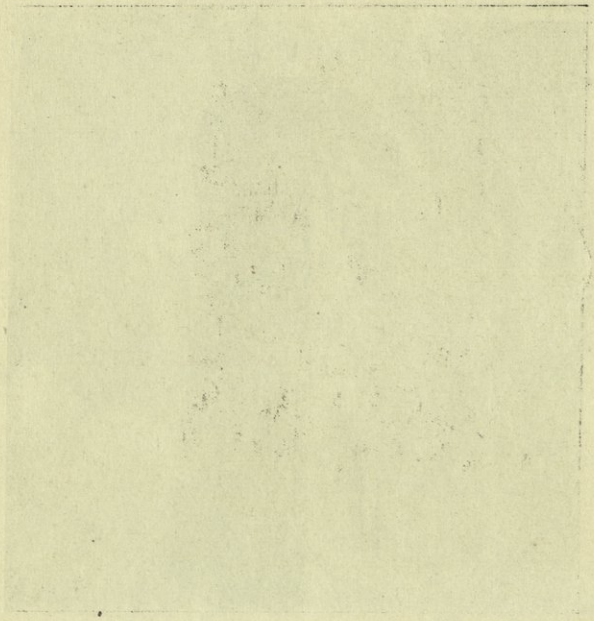

كتاب دمشق في العصر الايوبي

مئذنة جامع القلعي
يرى فيها القرنصة التي عرفت لذلك العهد

ومما يلفت الأنظار أن ما بناه الأيوبيون وأمراؤهم ومماليكهم من من الأبنية والمنشآت في دمشق وغيرها من البلاد الشامية كان حسن التصميم جميل البناء ذا واجهات من الحجر المنحوت، يعلوها قباب مرتفعة، كانوا يتخذونها عنصراً مميزاً لتلك الأمكنة الاسلامية.

وبناء القباب قديم في الشرق، أصل نشأته في آسيا الصغرى، أو في الأقاليم الواقعة شرقيها، وانتقلت عن طريق أرمينية إلى بيزنطية، ثم استعملها المسيحيون في كنائسهم كما استعملها المسلمون بعدهم في مساجدهم. ولما ازدهر فن العمارة في بلاد إيران لا سيما أيام استيلاء السلاجقة عليها، اتخذت القبة شكلاً خاصاً في سورية ومصر من جراء تأثر هذين القطرين بفن العمارة الإيرانية، وصار لهما هندسة خاصة عرفت بالمدرسة السورية المصرية.

ونرى من الظواهر المعمارية لذلك العهد غير القبة عناصر أخرى منها: المقرنصات التي أصبحت من خصائص العمارة الاسلامية، وطابعاً يميزها من الهند إلى اسبانيا، ومن المحتمل أن ترجع هذه الظاهرة المعمارية إلى أصل عراقي، وهو نوع من الزخارف يقلد به الأعمدة التي تنشأ في بعض المغاور الكلسية من فعل الرشح، والتي يسمونها باللغة الأفرنجية — استلاغتيت — وأكثر مايتخذ في زوايا السقوف، وعقود الأبواب، كالذي نشاهده في واجهات بعض المدارس القديمة كالعادلية، والظاهرية،

والتنكزية ، والنورية ، والقيمرية ، وفي بعض مآذن دمشق . وأجمل أنواعه في مقاصير حمام التوريزي [١] برأس الشويكة بدمشق .

وعرفت قاعات دمشق بهذا النوع من الزخارف المحفورة في الخشب والمغشاة بالألوان البديعة التي كان يقضي الفنانون في عملها أشهراً عديدة ، وتتألف هذه القاعات من إيوان أو إيوانين أو ثلاثة أواوين بينها شاذروان .

ومن عناصر البناء لذلك العهد الزخارف التي كانوا يستعملونها من خطوط كوفية وأشكال هندسية محفورة في الجص على الجدران أو في الخشب على توابيت القبور وجوانب المنابر . وأجمل أنواع الزخارف الجصية ما نشاهده في المدرسة التكريتية في حي الشركسية ، فإن بعض جدران هذه المدرسة مطلي بطبقة من الجص ، ثم رسم فوقها أنواع الزخارف والخطوط ، ثم حفرت حفراً عميقاً يكاد لا يكون إلا حزّاً حتى برزت الأشكال مجسمة ؛ وتعد من أنفس الزخارف الاسلامية .

وأما الحفر على الخشب فمن أجمل أنواعه منبر الملك مظفر الدين كوكبري بن علي بكتكين صاحب أربل [٢] في جامعه الذي بناه في سفح قاسيون ، ويعرف اليوم بجامع الحنابلة .

---

(١) هو الأمير عز الدين خليل التوريزي حاجب الحجاب توفي سنة ٨٢٦ هـ .

(٢) اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين ، وحظي عنده ، وتمكن منه ، وزاده في —

كتاب دمشق في العصر الايوبي

احدى مقاصير حمام التوريزي
يرى في جوانبها القرنصة

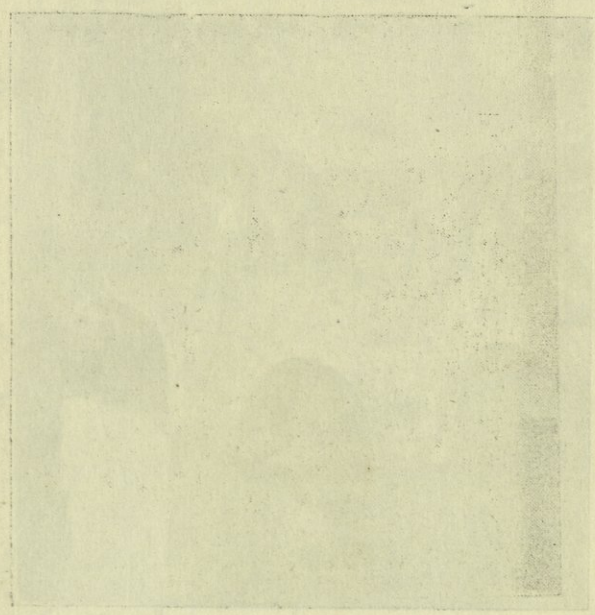

كتاب دمشق في العصر الايوبي

التكريتية في احدى جدرانها محراب وحوله نقوش من الجص

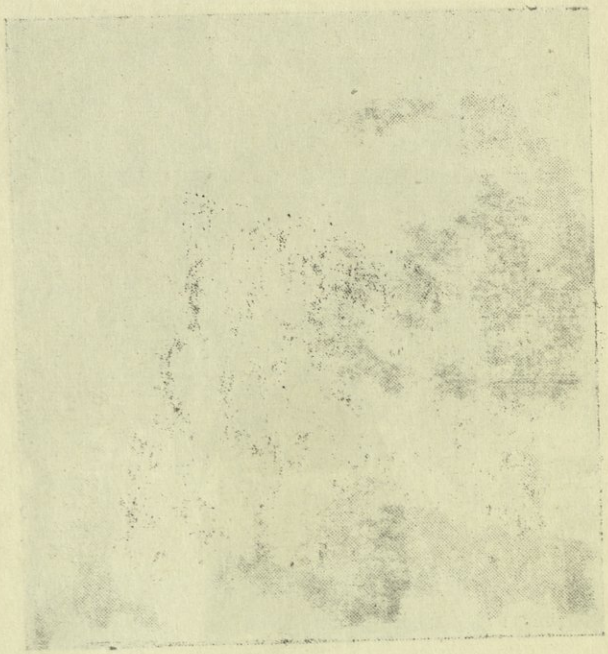

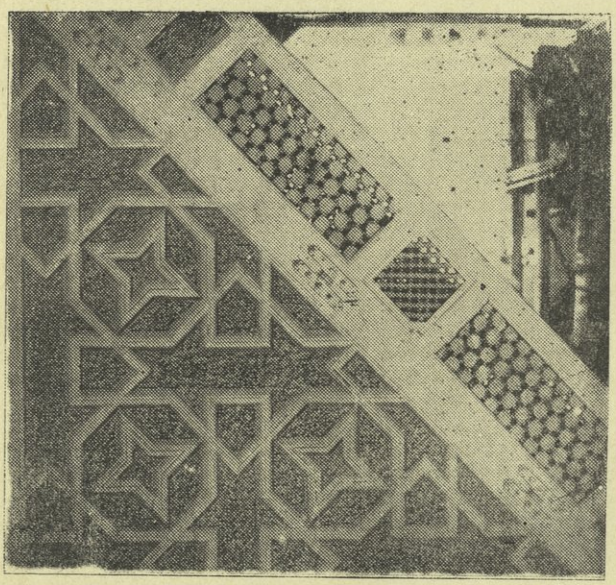

كتاب دمشق في العصر الايوبي

منبر جامع مظفر الدين كوكبري

وهو نموذج للحفر على الخشب الذي كان مستعملاً في ذلك العصر

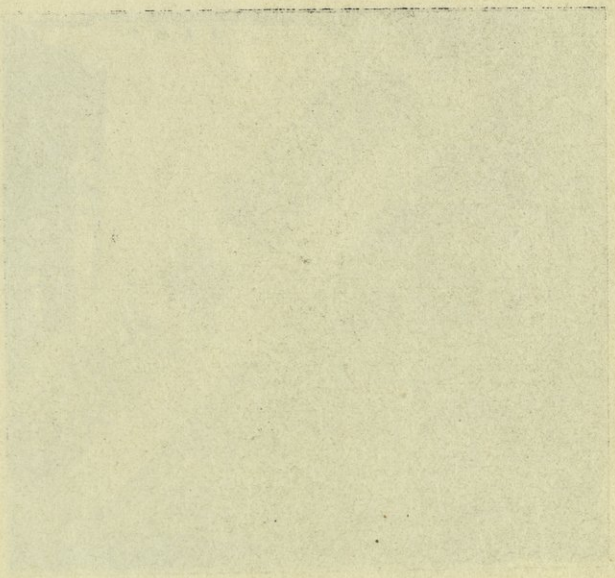

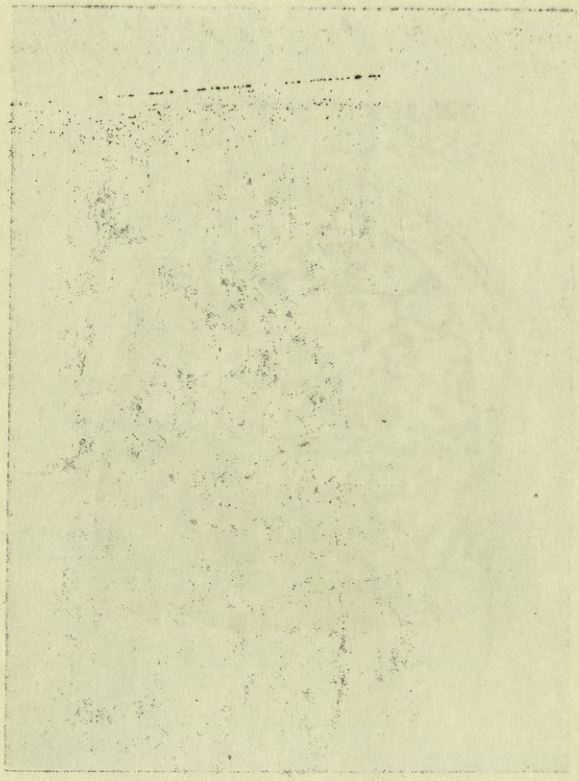

كتاب دمشق في العهد الايوبي

قمرية من الجص في جامع مظفر الدين كوكبري
المعروف الآن بجامع الحنابلة في سفح قاسيون

ومن انواع اعمال الجص القمارى ، ومفردها قمرية وهي نافذة من الجص المفرغ بزخارف عربية مؤلفة من نقوش أو رسوم أو نباتات أو كتابات مسدودة فتحاتها بزجاج ملون فاذا سقطت عليه اشعة الشمس انكسرت حدتها وصار لها شكل بديع ؛ ومن انواعه ماهو موجود بجامع الحنابله المتقدم ذكره .

وعمل التوابيت من اهم عناصر الفن لذلك العهد ، فقد كانوا يستعملون فنانين مختصين بالحفر على الخشب بأشكال وزخارف مختلفة ، وكانت هذه الصنعة شائعة شيوعاً كثيراً . ويعد تابوت السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما في مقبرة باب الصغير من اجمل عناصر هذا الفن وإن كان عمله متقدماً على العصر الأيوبي بسنين قليلة ، وقد نقش بخطوط كوفية . وجعل داخل الحروف نقوش وزخارف صغيرة ، وكتب عليه : من عمل أحمد بن محمد بن عبد الله سنة ستين وخمسمائة .

وكانوا يستعملون في بنائهم القاشاني المزين بأنواع الزهور ، والنباتات والخطوط ؛ وانتشر استعماله في قصور دمشق ، ومدارسها وجوامعها انتشاراً

— الاقطاع الرها من حرّان ، وزوجه اخته الست ربيعة خاتون ، وشهد مع صلاح الدين مواقف كثيرة ، وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس ، وثبت في مواضع لم يثبت فيها غيره ، وأشهرها وقعة حطين ، وطلب إلى السلطان صلاح الدين أن ينزل له عن الرها وحرّان ويعوّضه أربل فأجابه إلى ذلك ، وهذا في سنة ٥٨٦ هـ . وكان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، وهو من الأجواد ، والسادات الكبراء ، والملوك الأمجاد توفي سنة ٦٣٠هـ بداره ودفن باربل ثم نقل بوصية منه إلى مكة المكرمة ، ولم يتهيأ للركب الوصول إليها فعاد به ودفن بالكوفة .

عظيماً وكان له في دمشق سوق يعمل فيه ؛ قال يوسف بن عبد الهادي : وسوق القاشاني بباب شرقي . وأغنى مكان بالقاشاني في دمشق الآن هو تربة حاجب الحجاب خليل التوريزي برأس الشويكة .

ومن عناصر النباء الدمشقي الفسيفساء وهي صناعة دمشقية قديمة العهد ترجع الى ما قبل الاسلام كما حكاه البكري في كتاب معجم ما استعجم قال : (كان هل البيوتات يتبارون في البيع وزينتها : آل المنذر بالحيرة ، وغسان بالشام ، وبنو الحارث بن كعب بنجران ، ويعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه ، وكانوا يجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب ، وكان على ذلك بنو الحارث إلى أن أتى الله بالاسلام .)

وكذلك عرفت دمشق الأيوبية بهذه الصنعة التي لم يبق من آثارها إلا ما هو موجود على جدران قبة الملك الظاهر بيبرس ، وقطع على محراب الجامع التنكزي[٢] كما أشار إلى ذلك ابن فضل الله العمري من أعيان

وقد كتب على باب منبره العبارة التالية : أمر بعمل هذا المنبر العبد الفقير إلى رحمة الله كوكبري بن علي بن بكتكين صاحب اربل تقبل الله منه ، وأثابه ، وبتولية العبد الفقير إلى رحمة الله محاسن زمانه أبي محمد القلانسي سنة أربع وستمائة .

(٢) هو الأمير سيف الدين تنكز الملكي الناصري تولى نيابة الشام سنة ٧١٢ في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان رجلاً عبوساً شديد الهيبة وافر الحرمة ، لا يجترئ أحد من الأمراء أن يكلم أحداً بحضرته ، وكان مع جبروته له من يضاحكه ومن يغنيه . وله آثار حسنة في أماكن من البلاد الاسلامية . قبض عليه سنة ٧٣٩ ، وأخذ إلى القاهرة ، واعتقل بالاسكندرية أربعين يوماً ثم قتل خنقاً وهو مقيد ودفن هناك ، وفي سنة ٧٤٠ جيء به مصبراً في تابوت من مدينة الاسكندرية ودفن بتربته بجوار جامعه في حكر السماق الذي هو شارع النصر اليوم . واستمر في نيابة الشام ثمانياً وعشرين سنة .

كتاب دمشق في العصر الايوبي

قطعة من القيشاني الذي كان مستعملاً في تزيين الجدران

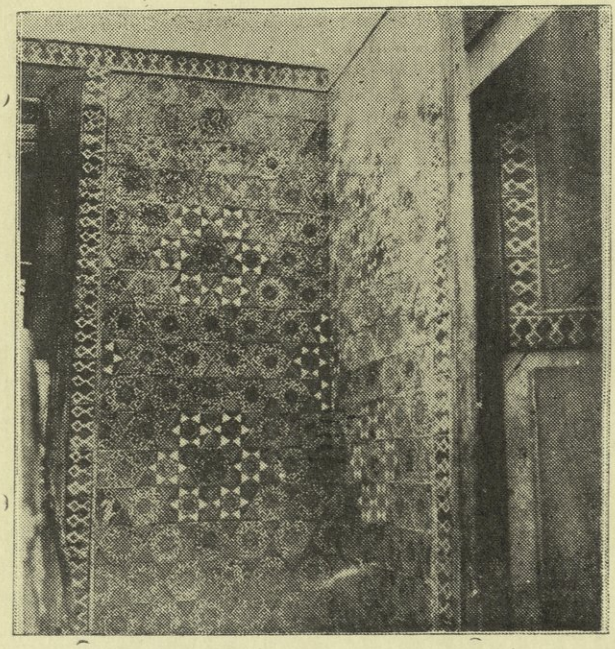

كتاب دمشق في العصر الايوبي

جدار في جامع التوريزي
يرى فيه قطع القيشاني باشكال مختلفة

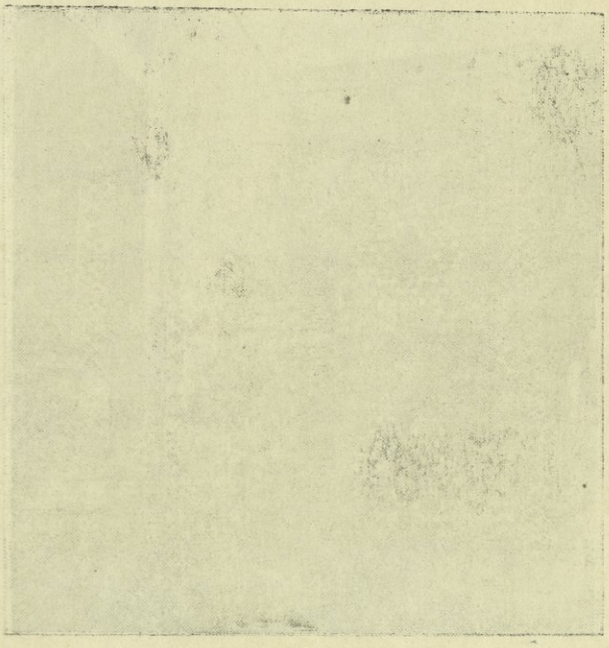

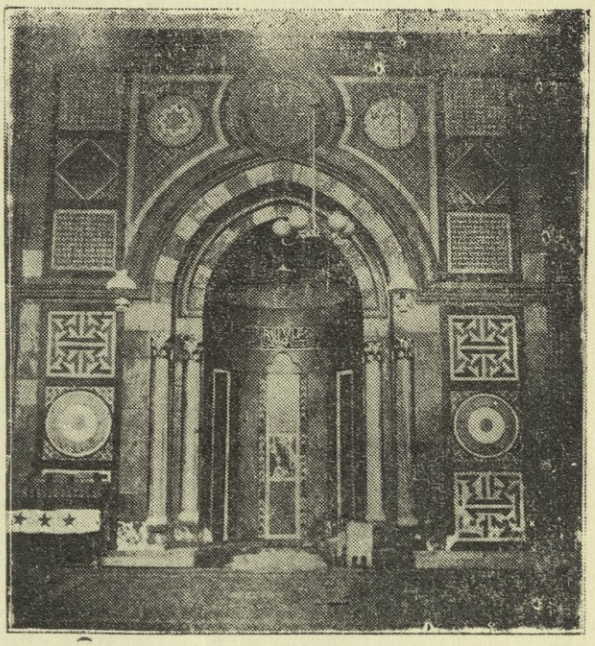

كتاب دمشق في العصر الايوبي

محراب جامع المسجد الاقصاب وفيه ترى كيفية تنزيل الاحجار
الصغيرة الملونة الى جانب بعضها باشكال هندسية

القرن الثامن عند كلامه على الفسيفساء ، قال : (وإن كان الجديد منه قطعه مختلفة ، والقديم قطعه متناسقة على مقدار واحد ، وهو معروف بصفاء اللون وبهجة المنظر ، وقد عمل منه في هـذا الزمن شيء كثير برسم الجامع الأموي ، وحصل منه عدة صناديق ، وفسدت في الحريق الواقع سنة أربعين وسبعمائة ، وعمل منه قبل للجامع التنكزي ما على جهة المحراب .)

وهذا قليل من كثير وغيض من فيض من عمائر الايوبيين وأمرائهم التي شادوها في دمشق حتى برزت بحلة قشيبة تباهى بها بقية البلاد الاسلامية ، وقد أشار أبو الفضل بن منقذ الكناني إلى جلائل هـذه الأعمال فقال :

وإذا مررت على المنازل معرضاً ... عنها قضى لك حسنها أن تُقبلا
إن كنت لا تستطيع أن تتمثل الفر ... دوس فانظرها تكن متمثلا
وإذا عنان اللحظ أطلقه الفتى ... لم يلق إلا جنة أو جدولاً
أو روضة أو غيضة أو قبـة ... أو بركة أو ربوة أو هيكلا
أو وادياً أو ناديـاً أو ماحبـاً ... أو مِذنباً أو مجدلاً أو موئلاً
أو شارعاً يزهو بربع قد غدا ... فيـه الرخام مجزَّعاً ومفصلا

* * *

لقد حبا الله مدينة دمشق بجودة المناخ ، وجمال المنظر ، ونضارة الخضرة وروعة الجلال إلى عذوبة الماء وطيب الهواء ورقة الطباع . ففي

كل بقعة منها ، وكل ناحية فيها مكان يمكنك أن تتخذه ملهى ومرتعاً ، ومنتزهاً ، فغوطتها ، وأنهارها وجبالها ، ووديانها ، وميادينها ، وحدائقها يجل الوصف عنها فكانت — ولم تزل — مرابع انس لسكانها وروادها وزوارها ، ولطالما وصفها السائحون فأبدعوا في وصفها ، ووصف ربوتها التي كان الدمشقيون يتخذونها متنزهاً لهم ، وفيها عمائر جميلة ؛ ولما نزل بها ابن جبير اعجب بها وبحسنها فقال : وبآخر هذا الجبل المذكور وفي رأس البسيط البستاني الغربي من هذا البلد الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليهما ، وهي من أبدع مناظر الدنيا حسناً وجمالاً وإشرافاً واتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرف وضع ؛ هي كالقصر المشيد ، ويصعد إليها على أدراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير وباذائها بيت يقال أنه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم ، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك ، وله باب حديد صغير يغلق دونه ، والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم يُر أحسن منها ، قد سيق إليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه لم يُر أحسن من منظره ، وخلف ذلك مطاهر يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان .

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقسم مائه ؛ ينقسم

فيها الماء على سبعة أنهار يأخذ كل نهر طريقه ، وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بشورا ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نُقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما اغتمس الجسور من سبّاح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ، ويخرج أسفلها وهي مخاطرة كبيرة .

ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ، ولا إشراف كإشرافها حسناً وجمالاً واتساع مسرح الأبصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها ، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به واصف في غلّو مدحه ، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير .

ويتصل بها أسفل منها بمقربة من المسافة قرية كبيرة تعرف بالنيرب قد غطتها البساتين فلا يظهر منها إلا ما سما بناؤه ، وبها جامع لم يُر أحسن منه مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط ، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة لها عشرة أبواب يجري الماء فيها ، ويطيف بها ؛ وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة هي من أحسن القرى تعرف بالمزّة وبها جامع كبير وسقاية معينة ؛ وبقرية النيرب حمّام ، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات . وفي الجهة الشرقية من البلد عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم عليه السلام قرية تعرف ببيت لاهية ، يريدون الآلهة ، وكانت فيها كنيسة هي الآن

كل بقعة منها ، وكل ناحية فيها مكان يمكنك أن تتخذه ملهى ومرتعاً ، ومنتزهاً ، فغوطتها ، وأنهارها وجبالها ، ووديانها ، وميادينها ، وحدائقها يجل الوصف عنها فكانت — ولم تزل — مرابع انس لسكانها وروادها وزوارها ، ولطالما وصفها السائحون فأبدعوا في وصفها ، ووصف ربوتها التي كان الدمشقيون يتخذونها متنزهاً لهم ، وفيها عمائر جميلة ؛ ولما نزل بها ابن جبير اعجب بها وبحسنها فقال : وبآخر هذا الجبل المذكور وفي رأس البسيط البستاني الغربي من هذا البلد الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليهما ، وهي من أبدع مناظر الدنيا حسناً وجمالاً وإشرافاً واتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرف وضع ؛ هي كالقصر المشيد ، ويصعد إليها على أدراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير وباذائها بيت يقال أنه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم ، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك ، وله باب حديد صغير يغلق دونه ، والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم يُر أحسن منها ، قد سيق إليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه لم يُر أحسن من منظره ، وخلف ذلك مطاهر يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان .

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقسم مائه ؛ ينقسم

فيها الماء على سبعة أنهار يأخذ كل نهر طريقه ، وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثورا ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نُقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما اغتمس الجسور من سبّاح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ، ويخرج أسفلها وهي مخاطرة كبيرة .

ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ، ولا إشراف كإشرافها حسناً وجمالاً واتساع مسرح الأبصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها ، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به واصف في غلّو مدحه ، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير .

ويتصل بها أسفل منها بمقربة من المسافة قرية كبيرة تعرف بالنيرب قد غطتها البساتين فلا يظهر منها إلا ما سما بناؤه ، وبها جامع لم يُر أحسن منه مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط ، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة لها عشرة أبواب يجري الماء فيها ، ويطيف بها ؛ وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة هي من أحسن القرى تعرف بالمِزّة وبها جامع كبير وسقاية معينة ؛ وبقرية النيرب حمّام ، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات . وفي الجهة الشرقية من البلد عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم عليه السلام قرية تعرف ببيت لاهية ، يريدون الآلهة ، وكانت فيها كنيسة هي الآن

العاشق والمعشوق ، وعليهما صومعتان بيضتان ، وبينهما سبعة مقاصف ، كل مقصف فيه من الثريات والمصابيح والغطاء والوطاء ما لا يحتاط به الوصف ، حتى أن بعض الناس يطلع إليها ليتنزه فيها يوماً فيقيم بها شهراً ؛ وجبلاها متقابلان متلاقيان ، عليها الجبل الغربي ، بذيله دف الزعفران ، والجبل الشرقي رأسه مثل الجنك ولهذا أطنب الشعراء في وصفهما ، وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة في وصفها :

بالجنك من مغنى دمشق حمائم في دف أشجار تشوق بلطفها
فإذا أشار لها الشجيّ بكأسه غنت عليه بجنكها وبدفها

وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي :

انهض إلى الربوة مستمتعاً تجد من اللذات ما يكفي
فالطير قد غنّى على عوده في الروض بين الجنك والدف

وقال البدري في محاسن الشام : شرفاها (الشمالي والجنوبي) وما حويا من المناظر والقصور ، وما فيهما من الولدان والحور ؛ وتقرب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس ، رغبة في جوار المجرّد الفقير البائس ، ورتبوا له الخبز ، واللحم ، والطعام ، والزيت ، والحلو ، والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام ، فيجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن ، فكيف لا ينبعث إلى طلب العلم ، ويتحرك من فهمه ما سكن .

ويقال إن بمدرسة الكججانية قبة بها طاقات بعدد أيام السنة ،

والشمس دائرة على تلك الطيقان ، ولا يدخل إليها وهـذا من حسن الهندسة ... وكل شرف يطل على (الشقرا) و (الميدان) و (القصر الأبلق) و (المرجة) ذات العيون والغدران ...

* * *

هذه دمشق ، وهذه مغانيها ، وخططها ، ورسومها ، وآثار ملوكها الذين عمروها ففتنت قبلنا أُناساً كثيرين من أبنائها ، ورواداها ممن نعموا حيناً بخيراتها وطيب عيشها ، وكم تغنى بها شعراؤها ، وأُدباؤها ، وكان أكثرهم حنيناً لها وبراً بها شاعرها شرف الدين محمد بن عُنين الدمشقي (شاعر الملك المعظم) فهو إذا ما طوحت به النوى إلى بلاد اليمن ، والهند ، وأقاصي الشرق اشتد حنينه إلى وطنه ، ومسقط رأسه ، ومرابع أنسه وردد أسم مغانيـه في قصيده وشعره : فصور عزّتا ، وقاسيون والوادي ، ونهر باناس ، وجبل سنّير ، وجبل الثلج ، مافارقت مخيلته ، ولا غربت عن فكره وخاطره من ذلك قوله :

دمشق فبي شوق إليها مبرّح ... وإن لج واش أو ألحّ عذولُ
بلاد بها الحصباء درّ وترابها ... عبير ، وأنفاس الشمال شَمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق ... وصحّ نسيم الروض وهو عليل
فياحبذا الروض الذي دون (عزّتا) ... سحيراً إذا هبت عليه قَبول
ويا حبذا (الوادي) إذا ما تدفقت ... جداول (باناس) إليه تسيل
وفي كبدي من (قاسيون) حرارة ... تزول رواسيه وليس تزول

إذا لاح برق من (سنير) تدافعت ... بسحب جفوني في الخدود سيول

فلله أيامي وغصن الصبا بها ... وريْق ، وإذ وجه الزمان صقيل

وفي موضع آخر يقول :

إذا جبل الريّان لاحت قبابه ... لعيني، وبانت من (سنير) هضابه

وهبت لنا ريح أتتنا من الحمى ... تحدّث عما حمّلتها قبابه

وقامت (جبال الثلج) زُهراً كأنه ... بقية شيب قد تلاشى خضابه

ولاحت قصور (الغوطتين) كأنها ... سفائن في بحر يعُب عُبابه

وأعرض لي نشر المصلى عشية ... كما أنجاب عن خبو النهار ضياؤه

لثمت الثرى مستشفياً بترابه ... وهيهات أن يشفي غليلي ترابه

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	المبحث التاريخي
١٤	دمشق في العصر الأيوبي
٢٢	الثقافة
٣٠	الاجتماع
٤٠	الاقتصاد
٥٠	العمران : وصف ابن جبير دمشق
٥١	. . . الكنيسة
٥١	. . . المدارس والمارستانات
٥١	. . . الرباطات
٥٢	. . . القلعة
٥٢	. . . الحمامات
٥٢	. . . الأسواق
٥٢	. . . الأوقاف
٥٣	. . . وصف ابن بطوطة للأوقاف
٥٤	. . . دمشق الأيوبية
٥٤	. . . الأسواق
٥٥	. . . سوق تحت القلعة

الصحيفة	الموضوع
٥٦	العمران : الشرفان
٥٦	. . . القصر الأبلق
٥٧	. . . الصالحيـة
٥٨	. . . القلعـة
٥٩	. . . معسكر الجابية
٦٠	. . . الميدان
٦٠	. . . العادلية الكبرى
٦١	. . . الظاهرية الجوانية
٦٢	. . . دار الحديث الأشرفية
٦٢	. . . الشامية البرانية
٦٢	. . . العزية البرانية
٦٣	. . . مدرسة الطب النورية
٦٣	. . . مدرسة الطب القيمرية
٦٤	. . . المارستان الصغير
٦٤	. . . البدرية
٦٥	عناصر البنـاء في العصر الأيوبي
٧٥	الربوة
٧٧	الفهرس

956.9:H231dA:c.1
الحموى ،محمد ياسين
دمشق في العصر الايوبى
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01058757

American University of Beirut

956.9
H231d A

General Library

956.9
H231dA
C.1